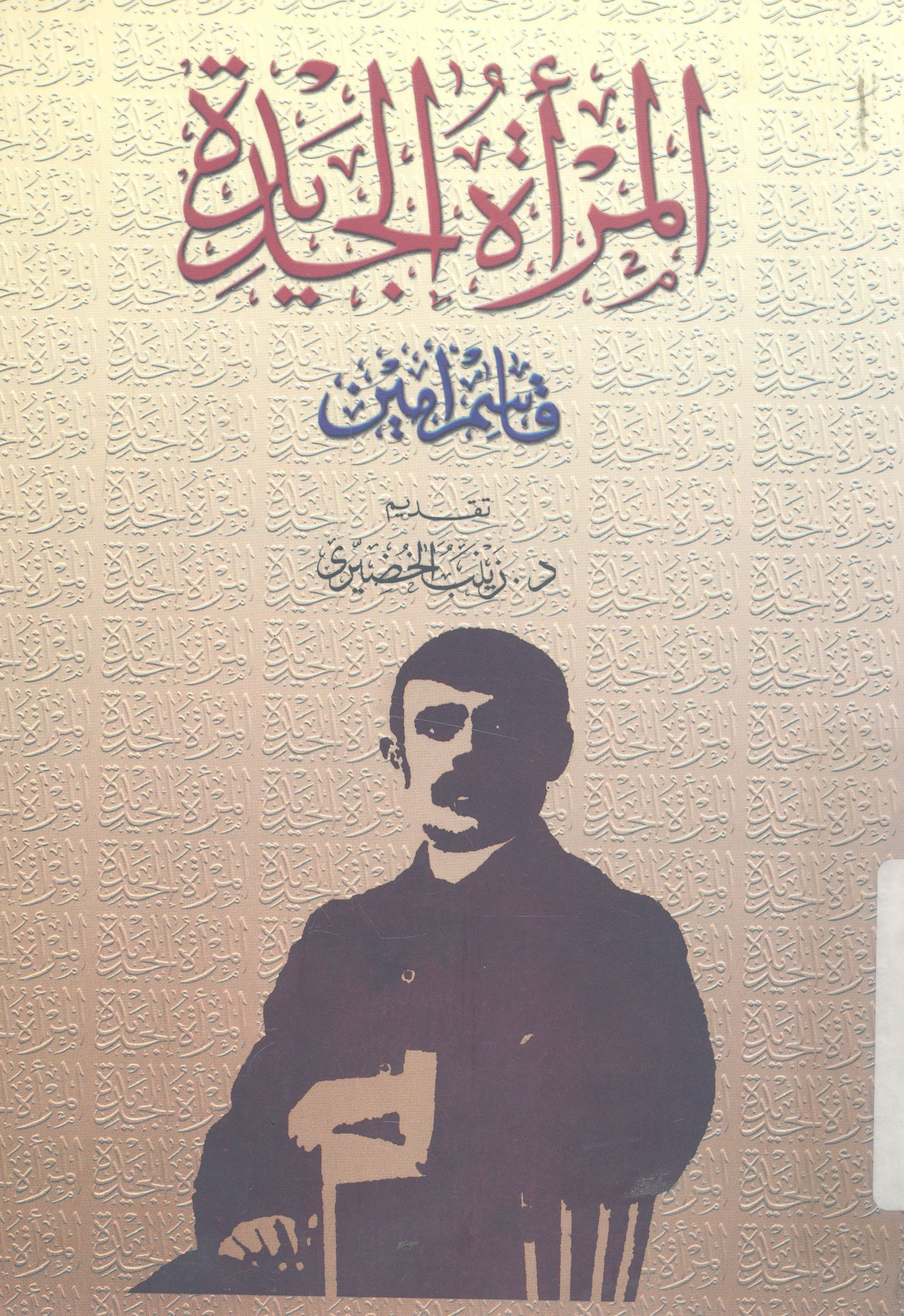

المرأة الجديدة
قاسم أمين
تقديم
د. زينب الخضيري



قاسم أمين

تقديم

د. زينب الخضيري

قراءة جديدة للمرأة الجديدة

د. زينب محمود الخضيرى

تمهيد

شعر المسلمون فى نهاية القرن الماضى، وخاصة فى مصر، بضرورة القيام بحركة واسعة لإصلاح العادات والتقاليد والقيم وكثير من أوضاع حياتهم الاجتماعية. وكان وضع المرأة مما لقى اهتماما خاصا فى تلك الحركة الإصلاحية على يد ابن مصر النابه قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) الذى كرس حياته للتصدى لمشكلة المرأة المسلمة فى محاولة جريئة وواعية لعلاجها، وهى تلك المحاولة التى كتب لها النجاح. لم يكن قاسم أمين هو الوحيد الذى عنى بمشكلة المرأة إنما شاركه الاهتمام بها كثيرون على رأسهم الإمام محمد عبده فى مصر وعنان حسين وأمير على فى الهند.

وترجع كثرة عدد المهتمين بهذه القضية إلى أنها كانت تمثل مشكلة تعانى منها المجتمعات الشرقية الإسلامية وتلح على المفكرين مستجدية الحل. إن أوضح دليل على وجود علاقة جدلية بين الواقع الاجتماعى والفكر هو إنجاز قاسم أمين. كان المجتمع المصرى قد بدأ يخطو خطواته البطيئة المترددة نحو تحرير المرأة وهو الأمر الذى فرضته التغيرات

الاجتماعية الكبيرة التى حدثت فى هذا المجتمع والتى كان أساسها تغيرات سياسية واقتصادية واسعة، فجاءت دعوة قاسم أمين عاكسة لهذا التطور ومبلورة ودافعة له. وأثارت دعوته المدروسة الواضحة هذه، ردود فعل متباينة أكثرها معاد لها بالطبع. وبالرغم من مقاومة أغلبية العقول المثقفة لها فضلا عن الرأى العام فقد حققت فى النهاية الهدف الذى كانت تتطلع إليه إذ جاءت فى اللحظة التاريخية التى كان لابد لها أن تأتى فيها لتحقق نجاحا حتميا..

كان قاسم أمين يهدف من تحرير المرأة ومن وضعه لتصوره للمرأة الجديدة التى يحلم بها، تحقيق سعادة كل من المرأة والرجل. لم يكن المجتمع عنده مجموعة من الأفراد بل كان مجموعة من العائلات، والعائلة لا تكون سليمة البنيان سعيدة إلا إذا كانت المودة تجمع بين قطبيها أى بين الرجل والمرأة. يقول فى إهدائه لسعد زغلول الذى صدَّر به «المرأة الجديدة»: «إن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته. ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالاً ونساء». السعادة تحتاج إذن لتتحقق مساهمة المرأة إلى جانب مساهمة الرجل، ولا يمكن لذلك أن يتحقق إلا إذا كانت المرأة قادرة عليه، أى إلا إذا كانت مستنيرة واعية، مدركة لما يدور حولها مشاركة فيه. من أجل هذا كان لابد من تحرير المرأة من أغلال جهلها وتخلفها. تلك ببساطة كانت دعوة قاسم أمين فى المرأة الجديدة. لم تكن دعوة حماسية أراد بها صاحبها أن يظهر بمظهر المتمدين الذى يأخذ بأسباب التحديث الغربى، إنما هى دعوة فيلسوف بل عالم اجتماع درس طويلا وعميقا مجتمعه وهو ما أتاحه له عمله كقاض، وألم بتاريخ مشكلة المرأة إلماما واسعا فلم يقنع بالوقوف عند حد المعرفة إنما أراد، لكونه رجلا وطنيا مهموما - فى المقام الأول - بإصلاح هذا الوطن الذى

ينتمي إليه، أن يعمل على حل هذه المشكلة. فكما أراد أوجست كونت أن يصلح مجتمعه عن طريق إصلاح أخلاقه، هذا الإصلاح الذى لا يتحقق إلا بإصلاح منهجه فى التفكير، أراد قاسم أمين مستعينا بنفس المنهج الوضعى إصلاح مجتمعه عن طريق إصلاح أخلاقه وهو ما لا يتحقق إلا بإصلاح وضع المرأة.

وقبل أن نعرض لمختلف القضايا التى عالجها فى «المرأة الجديدة» نرى عرض المنهج الذى التزم به فى عرضه.

أولاً : المنهج والرؤية العلميان عند قاسم أمين :

كان لقاسم أمين منهج علمى دقيق التزم به - فى رأيى - فى عمليه الأساسيين اللذين كرسهما لمشكلة المرأة المسلمة وأعنى بهما «تحرير المرأة (١٨٩٩)» و«المرأة الجديدة (١٩٠٠)» بل إن أصول هذا المنهج تتضح فى صفحات «المصريون» (١٨٩٤) بالرغم من الظروف الانفعالية التى صاغ فيها الرد على دوق داركور والعجلة التى فرضتها عليه هذه الظروف فرضا. كان قاسم أمين مصلحا اجتماعيا من طراز فريد فى عالمنا العربى الإسلامى، وأعنى بهذا أنه سلك فى محاولاته الإصلاحية مسلك علماء الاجتماع وأخذ بمناهجهم فلم يعن بكل مشاكل المجتمع الذى يحلم بإصلاحه ولم يسع لحلها كلها جملة وتفصيلا، إنما قصر اهتمامه على ظاهرة واحدة تحتاج لدراسة علمية تمهيداً لإصلاحها، ألا وهى مشكلة وضع المرأة المسلمة المؤلم فى المجتمع الشرقى بعامة والمصرى بخاصة. ولم تكن هذه المشكلة فى رأيه بالمشكلة الهينة ولا مما يمكن تأجيله بل هى مشكلة معقدة وتحتاج لحل سريع، فالمرأة هى «ميزان العائلة» وبالتالى فمشكلتها هى أساس كل المشاكل الاجتماعية الأخرى. ولقد حدد المنهج المناسب لدراسة هذه المشكلة الاجتماعية المحددة وهو ذلك المنهج الذى «يبحث فى كل شئ وينتقد كل شئ».

وهذا التعريف للمنهج يصدق على المنهج العلمى المستخدم فى العلوم الاجتماعية الحديثة، غير أن قاسم أمين يضيف إليه عنصراً جديداً يكشف عن اتجاه براجماتي واضح لدى صاحبه وهو أن يكون محققاً «للمنفعة العامة». وليس مما يعيب قاسم أمين التمسك بالجانب النفعى فى كل ما درس فهو ليس باحثا أكاديميا يؤلف أعمالا تزين بها المكتبات ويتشدق المثقفون بما جاء بها، إنما هو مصلح يكتب ليوجه الجهد ويحث على العمل تحقيقا للمنفعة وصفحات «المرأة الجديدة» مليئة بالمفاهيم النفعية ومحورها عنده أن معيار صدق الفكرة هو أن تكون محققة للمنفعة العامة.

آمن قاسم أمين بأن الظواهر الاجتماعية تخضع للقوانين مثلها مثل الظواهر الطبيعية. يقول فى عبارة واضحة دقيقة بما يذكرنا بأسلوب فلاسفة وعلماء الاجتماع الأوروبيين فى القرن التاسع عشر «لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة للقوانين الطبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من أمرها فى المستقبل»[1].

وأول خطوات البحث العلمى عنده هى دراسة تاريخ المشكلة والمراحل المختلفة التى مرت بها. فالدراسة التاريخية لا غنى عنها لإدراك حاضر هذه المشكلة وللتنبؤ بما ستصير إليه فى المستقبل. يقول فى السطور الأولى من أول فصول المرأة الجديدة «تلك هى قاعدة البحث فى المسائل الاجتماعية كأننا لا يمكننا أن نقف على حقيقة حالتنا فى أى شأن من شئوننا إلا بعد استقراء الحوادث الماضية والإلمام بالأدوار التى تقلبت فيها. وبعبارة أخرى يلزم أن نعرف من أى نقطة ابتدأنا حتى نعلم إلى أى نقطة سنصل». وبلغة علم الاجتماع نقول إنه كان يدرك ضرورة دراسة الظاهرة الاجتماعية فى ثباتها وفى تطورها. لقد تبين قاسم أمين

---

(١) المرأة الجديدة - فصل الواجب على المرأة لنفسها.

هذه الضرورة لأنه وقف على نظرية التطور وأخذ بها وجعلها أساساً من أسس فكره. كان يؤمن بأن التطور هو سنة الحياة الطبيعية والاجتماعية على السواء فتلك «سنة الفطرة». ولأن قاسم أمين كان واعيا بسيكولوجية المجتمع الذى يعيش فيه، ولأنه كان مدركا تماما لتأثير رجال الدين المتزمتين على العامة بل على المثقفين فقد ربط بمهارة بين قانون التطور وبين السنة الإلهية فيقول: إن قانون التطور هو السنة الإلهية، فكيف نقاومه؟ إن من واجبنا الاستسلام لحكم هذا القانون بل وأن نتحمل المتاعب فى سبيل تحقيقه[1].

وأدرك قاسم أمين خطورة الاستغراق فى التأملات النظرية مما يسفر - على أفضل تقدير - عن نظريات مثالية لا تأثير لها فى حياتنا الواقعية ولذا فرق بين هذا النوع من النظريات وبين النظريات العلمية الحقة. فالأولى يصوغها صاحبها من نسيج خياله وهو قابع فى مكتبه وكل ما يحتاج إليه لينجح فى مهمته هذه أن تكون لديه القدرة على صياغة الآراء فى عبارات سلسة وصاحبها لا يدرس أشخاصا حقيقيين بل يتقوقع فى خيالات تملأ عقله ويستسلم لتأمل فلسفى مجرد يستمد منه حلولا وهمية. وغنى عن القول أن مثل هذه النظريات مبتورة الصلة بواقع المجتمع لا تحقق إصلاحا فهى من قبيل الأحلام والأمنيات وإن ظن صاحبها أنها لا تخطئ أبداً لأنها صالحة لكل زمان ومكان. وإذا عرض مثل هذا المفكر للمشكلة التى نحن بصددها، أى مشكلة المرأة المسلمة الشرقية، نجده يبحث فى المفهوم العام والشامل والمجرد للمرأة العربية، غير واضع فى اعتباره الاختلافات الزمانية والمكانية العميقة بين النساء. فالمرأة العربية فى الماضى ليست كالمرأة العربية فى الحاضر، المرأة المصرية فى الريف غيرها فى المدينة والمرأة الثرية غير الفقيرة،

---

(١) المرأة الجديدة - فصل حرية المرأة.

والمسلمة غير المسيحية. أما النظريات العلمية فيستخلصها صاحبها من الواقع المتنوع والمتغير بعد طول معايشة وملاحظة وتبين للاختلافات التى تطرأ على الظاهرة تبعا للمكان والزمان. وهو لا يعلن عنها إلا بعد التأكد من صدقها. هذا النوع من النظريات العلمية هو الذى اجتهد قاسم أمين لوضعه. فهو قد درس المرأة المصرية فى كل الطبقات وفى المدن وفى القرى، وفى أحوالها الاجتماعية المختلفة سواء أكانت زوجة أم مطلقة أم أرملة أم لم تتزوج بعد، ثم قارن بين حالها وحال أختها الأوروبية المتمتعة بحقوقها. كما درس ماضى وضع المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى ولجأ للإحصائيات، ليكون حكمه مستندا على الأرقام. ليس هذا فحسب بل وضع فى اعتباره أن الاحصائيات تكون أحيانا غير صادقة. ولم يكن هذا الجهد الذى بذله بالأمر الهين. وبالرغم من هذا فهو لا يصدر أحكما قاطعا إذا كانت مقدماته ظنية لا يقينية، كما أنه يصر على مواصلة البحث وعلى تعديل الرأى وفقا لما يسفر عنه البحث فى المستقبل . وما كان لدعوة قاسم أمين الإصلاحية أن تنجح إلا لأنه أخذ بالمنهج العلمى الحديث بعد أن استوعب أصوله وبعد أن اقتنع بأنه السبيل الوحيد للإصلاح وللتطور.

وأدرك قاسم أمين بعد أن درس تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وما آلت إليه، وتاريخ الحضارة الغربية وما أصبحت عليه، أن الفارق بين الاثنتين هو أن الأولى تجاهلت المنهج العلمى الحديث، بينما جددت الثانية صرحها على أساسه. وكان قاسم أمين يعرف أن النوايا الحسنى التى يعبر عنها بالشعارات ليست السبيل إلى الإصلاح، إنما السبيل الوحيد هو العمل على تعرية العيوب أولا، ثم دراسة وسائل القضاء على هذه العيوب ثانيا، ثم العمل ثالثا على إقامة النظم الجديدة، ولذا فقد رأى الالتزام بهذا المنهج العلمى فى الإصلاح والبدء بدراسة نقدية للحضارة الإسلامية بشكل عام وبدراسة مشكلة المرأة باعتبارها مشكلة

حضارية بوجه خاص.

ثانياً : مشكلة المرأة مشكلة حضارية :

طرح قاسم أمين مشكلة المرأة المسلمة المصرية فى إطار مشكلة الحضارة الإسلامية ككل. وأقول «مشكلة» لأنها كانت تمثل بالنسبة لقاسم أمين مشكلة لابد من طرحها ودراستها دراسة نقدية فى محاولة لحلها بالرغم من صعوبتها. وفى طرحه لمشكلة الحضارة الإسلامية يتضح لنا وجه آخر من وجوه قاسم أمين الفكرية المتعددة، فهو ملم بكل تفاصيل وقضايا فلسفة الحضارة.

تدهورت الحضارة الإسلامية: هذا مما لا شك فيه فما أسباب ذلك التدهور؟. يرجع قاسم أمين تدهور أى حضارة لأحد الأسباب الآتية :

«الإقليم» أو الدين الذى تقوم عليه، أو لبنة التجمع الإنسانى الأولى وأعنى بها العائلة. ويستبعد قاسم أمين أن يكون الإقليم المصرى هو سبب تدهور الحضارة الإسلامية على أرض مصر لأن حضارتنا المصرية القديمة خير شاهد على أن هذا الإقليم بعينه يتيح ازدهار الحضارات وليس تدهورها واستبعد قاسم أمين أيضا أن يكون الإسلام هو السبب فهو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والسعى ، والتاريخ يشهد بأنه كان بحق عاملاً من أقوى عوامل بناء الحضارة الإسلامية إذ حث المسلمين على الجهاد لنشره فى بلاد عديدة، كما دفعهم إلى استيعاب أفضل الثمار الحضارية التى حققتها مختلف الحضارات من قبل، مما أتاح للمسلمين بناء حضارة عظيمة. وهنا يفرق قاسم أمين تفرقة حاسمة وصائبة بين الدين الإسلامى فى جوهره وبين صورته المشوهة التى أصبح عليها اليوم[1] نتيجة لتسلل كثير من البدع

---

(١) يقصد بذلك العام ١٩٠٠ وقت صدور الكتاب.

والآفات إلى عقول المؤمنين به. وغنى عن القول أن هذه الفكرة نجدها أيضا عند محمد عبده.

الإسلام إذن برئ من تدهور أحوال المؤمنين فهم وحدهم مسئولون عنه. لم يبق إذن إلا العائلة فلابد أنها سبب تدهور حضارتنا الإسلامية بشكل عام ومجتمعنا المسلم المصرى على وجه الخصوص. ولعله يتضح هنا ضخامة أهمية العائلة عند قاسم أمين إذ عدها هى علة تقدم المجتمع إذا ما انصلح نظامها، وعلة تدهوره إذا ما فسد هذا النظام.

لم تعن الحضارة الإسلامية فى رأى قاسم أمين لا بالنظم السياسية ولا بالنظم الاقتصادية ولا بالنظم الاجتماعية، فكل هذه النظم كانت موضوعا لعلوم حديثة لم يعرفها المسلمون قديما. وهذا الرأى يمكن بالطبع مناقشته والرد عليه فليست كل آراء قاسم أمين صحيحة إنما قيمتها الأساسية عندنا فى المناهج التى أدت إليها وفى أسلوب طرحها. ويذهب قاسم أمين إلى أنه نظراً لإنصراف العقل العربى الإسلامى عن الاهتمام بالنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فلم يوجد من بين الحكام أو من بين الفقهاء من وضع نظاماً أو تصوراً لتنظيم العلاقات الأسرية. ويرجع قاسم أمين غياب النظم هذا، عن حضارتنا الإسلامية إلى أن نوعية نظام الحكم كانت تتوقف، دائما على صاحب السلطة سواء أكان خليفة أم سلطانا، فإذا كان صالحا تمسك هو وأعوانه بأصول العدالة، وإن كان غير ذلك، جار هو وأعوانه عليها.

وترتب على ذلك أن عجزت الأمة الإسلامية، حتى وهى فى أوجها، عن وضع نظم ثابتة ومنها نظام للعائلة كما فعلت من قبلها الدول اليونانية والرومانية التى عرفت نظما ديمقراطية ونيابية للحكم. وإذا كان هذا هو التقييم الموضوعى لما كان عليه حال العائلة فى الحضارة

الإسلامية فكيف نلتزم بتراثها إذا ما عالجنا مشكلة المرأة فى عصرنا؟[1].

تتمثل قيمة معالجة قاسم أمين - كما يتضح من تقييمه للحضارة الإسلامية نظراً لكون مشكلة المرأة جزءاً من مشكلتها ككل - فى طرحه لمشكلة العائلة طرحا حضاريا واعتبارها ظاهرة اجتماعية لها تاريخها الذى لابد من الإلمام به، واعتبار أنها مرتبطة بغيرها من الظواهر الاجتماعية بعلاقات متشابكة. بمعنى آخر تتمثل قيمة معالجة قاسم أمين فى اعتباره مشكلة المرأة جزءاً من كل.

وكانت خطة قاسم أمين خطة محكمة للغاية فهو يرى ضرورة تقييم الحضارة الإسلامية وتقييم تراثها حتى أثبت أنها مليئة بأوجه النقص، وسلم القارئ بهذا، تقبل فكرة ضرورة رفض الحلول التى قدمتها هذه الحضارة فى الماضى للمسائل المختلفة ومنها مسألة المرأة. فالحضارة الإسلامية ليست بحال من الأحوال «نموذجا للكمال البشرى». كانت الحضارة الإسلامية فى الماضى مما يفخر به أبناؤها أما الآن فهى تراث عتيق يثقل على العقول ويعوقها ويحول دون انطلاقها، أعطت الحضارة الإسلامية عطاءها فى حقبة زمانية معينة، أما الآن فقد أصبح من الضرورى بث الروح فيها من جديد وتجديدها إذ بات كثير من مفاهيمها ونظمها وعاداتها وتقاليدها باليا غير ملائم للزمن الذى نعيش فيه.

ويحاول قاسم أمين تفسير تمسك المسلمين بقيم ومفاهيم حضارتهم المتدهورة فيقول إنهم يظنون أن ما هو موجود بديع ولا يمكن أن يكون هناك أبدع منه «وهذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه» فلم التغيير؟ كما أن نشأة الأبناء على احترام الآباء وتعظيم كل ما يصدر عنهم من جهة واستهجان الآباء دائما لكل جديد يأتى به الأبناء من جهة

---

(١) المرأة الجديدة - فصل التربية والحجاب.

أخرى من أهم أسباب تمسك المسلمين بكل ما فى حضارتهم. «وهم الأبناء» من جهة، وغرور الآباء من جهة أخرى يؤديان إلى «عبادة الماضى» مع أن التاريخ يقول لنا إن التطور هو سنة الحياة[1].

ويضع قاسم أمين مبدأ هاماً لابد من الالتزام به فى تحديد علاقتنا بالتراث وبماضينا: يجب الرجوع إلى تراثنا لا لنكون صورة طبق الأصل منه، بل لكى نستخلص منه - باعتباره وعاء لخبراتنا وتجاربنا وحاويا لأصولنا (وهذه رؤية عصرية لعلاقة الماضى وتراثه بالحاضر) - الأسس التى نقيم عليها بناء الحاضر والمستقبل. ولابد أن تكون دراستنا للماضى وللتراث دراسة نقدية من شأنها بيان أسباب قيام الحضارة الإسلامية وتدهورها. ويرفض قاسم أمين إذن العبودية للتراث وللماضى ولكنه يرفض كذلك بتر الجذور، فأى مجتمع له ماض لا يمكن محوه، والإنسانية كلها سلسلة متصلة الحلقات لا يمكن بتر ماضيها عن حاضرها. وغنى عن القول أن هذه الفكرة إحدى أفكار «أوجست كونت» التى كانت سائدة فى فرنسا فى الفترة التى أمضاها فيها قاسم أمين.

لنا أن نعجب بتراثنا ولكن باعتباره نتاجا لمرحلة معينة مضت وليس فى الامكان تجميد التاريخ عندها، وكثير من مظاهر هذه الحضارة ومفاهيمها وقيمها لا يمكنها الاستمرار فى حياتنا يجب مواجهة الواقع وحقائقه بقسوة «نحن طلاب حقيقة إذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها»[2]

تبين قاسم أمين أن الحضارة تبنى على العلم الطبيعى والرياضى وأن على المفكرين تمثل درجة التقدم العلمى فى مجتمعاتهم حتى يتسنى لهم أن يعلموا «الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب وما هو مستقبله»

---

(١) المرأة الجديدة - الفصل السابق.

(٢) المرأة الجديدة - الفصل السابق.

وتبين كذلك أن العلم إذا خطا خطوة فلابد للفكر الإنسانى أن يسايره لينسجم معه، أما إذا تقدم العلم وظل الفكر على حاله نتيجة لتمسك الناس بقديهم وبتراثهم فهنا تحدث تلك الازدواجية وذلك الخلل فى المجتمع[1]. وهذا هو الخلل الذى أراد قاسم أمين إصلاحه فى مسألة المرأة. أثبت العلم الطبيعى الحديث أن المرأة مساوية للرجل عقلا ومع ذلك يرفض الناس تغيير عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم، أى تغيير فكرهم بما يتفق وهذه الحقيقة.

ويتخلى قاسم أمين عن منهج عالم الاجتماع وفيلسوف الحضارة والتاريخ ليستخدم أسلوب المصلح صاحب الدعوة فيدعو مجتمعه دعوة صادقة لمواجهة نفسه وألا ييأس من نتيجة هذه المحاولة، أى أنه إذا ما تبين له أنه فى أسوأ الظروف والأحوال، فليقل لنفسه إن دوام الحال من المحال وإن كل شئ سيتغير إلى الأحسن. إن التوجه إلى الإصلاح وإلى «الكمال» لا يكون إلا نتيجة للشعور بالنقص. إن أول واجباتنا هو تبين أوجه نقصنا وضعفنا، فالشعور بالنقص هو الخطوة الأولى فى سبيل الترقى.

ويتمثل حل المشكلة التى نعانى منها فى رأى قاسم أمين فى الأخذ بالعلوم العصرية التى أنتجها الغرب. إن العلم يخضع كل شئ لسلطانه. وإيمان قاسم أمين بالحل العلمى قوى وعميق وواضح فى كل صفحات «المرأة الجديدة» لقد أقام العلم بناء متينا ولا يمكن لعاقل أن يفكر فى هدمه. والدليل على قوة العلم وعلى حتمية انتصاره على كل ما يقف فى وجهه أنه انتصر على رجال الدين وأصبح هو صاحب السلطان واليد العليا فى أوروبا. ولأن العلم إنسانى لا تحدده ظروف المجتمع الذى ينشأ فيه فهو يخلق بالضرورة نوعا من التقارب بين

---

(١) نفس المرجع السابق ونفس الفصل.

الشعوب المختلفة التى تأخذ به. وينسحب هذا التقارب على العادات والتقاليد ومنها الخاصة بعلاقة الرجل بالمرأة وبزى هذه. وتطل من بين السطور فكرة لم يصرح بها قاسم أمين إلا أنه يمكن استنتاجها بوضوح وهى التى من أجلها وضع الحضارة الإسلامية كلها فى الميزان، ألا وهى أن كلا من علاقة المرأة بالرجل ومظهرها المبالغ فى التحجب من الظواهر البالية لحضارتنا ومما يجب الخلاص منها تماما، فهى لا فائدة لها والإبقاء عليها ليس إلا إبقاءً على الجمود.

انعكس التدهور الذى أصاب الحضارة الإسلامية على العائلة أكثر مما انعكس على أية ظاهرة أو بنية أخرى. وإذا ما أردنا الإصلاح والصلاح فلابد من البدء بالعائلة وعلى وجه التحديد لابد من البدء بالمرأة التى هى «ميزان العائلة». وإذا أردنا إصلاح وضع المرأة فلابد من دراسة طبيعة المرأة دراسة علمية.

ثالثاً : طبيعة المرأة :

من الغريب أن علماء الإسلام الذين تسابقوا على تكبيل المرأة بالقوانين والأحكام القاسية غير الإنسانية وكأنها شيطان غبى لابد من تقييده، كانوا يجهلون حقيقتها فكيف يمكن وضع قوانين لكائن نجهل طبيعته؟

رأى قاسم أمين أن الوضع المتردى الذى تعيشه المرأة المسلمة الشرقية فى عصره، طبيعة المرأة غير مسئولة عنه إنما هو راجع إلى الجهل بهذه الطبيعة وإلى الإصرار على الإبقاء على الأوضاع القائمة. ولا يمكن الوقوف على حقيقة المرأة إلا إذا درسنا طبيعتها دراسة علمية تعتمد على منهج علمى سليم، وهو ذلك المنهج الذى سبق أن أشرت إليه فى البداية، ويقتضى المنهج العلمى التعرف على تاريخ الظاهرة التى يتناولها حتى يكون فى الإمكان تبين تطورها وإدراكها إدراكا سليما،

وهذا ما فعله قاسم أمين . عرض لتاريخ وضع المرأة في المجتمعات المختلفة على مر العصور مبرزا الارتباط الوثيق بين استقلالها الاقتصادي من جهة وتصور المفكرين لطبيعتها من جهة أخرى، وهو التصور الذي يحدد حقوق المرأة وحريتها. فمثلا كانت تبعية المرأة الاقتصادية للرجل أقوى ما تكون في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى مما سمح لبعض رجال الدين أن ينكروا أن تكون المرأة روح خالدة مثلها مثل الرجل[1]. الفكر الديني إذن يتأثر بالظروف وفي كثير من الأحيان يكون تبريرا لأوضاع اجتماعية واقتصادية بعينها، ولا يملك قارئ قاسم أمين وبالذات قارئ المرأة الجديدة إلا التيقن من أن صاحبنا كان ملما ومؤمنا بالفكر الاقتصادي الاشتراكي. والمرأة الجديدة يتردد فيها كثيراً عبارات من قبيل «إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالتها الاقتصادية، ومن الأسف أن هذه الحالة الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء»[2].

وتصور طبيعة المرأة لا يحدده فحسب وضعها الاقتصادي إنما يحدده أيضا شكل الحكم في الدولة التي تعيش فيها. فإذا كان النظام استبداديا انعكس ذلك بوضوح وبحتمية على علاقة الرجل بالمرأة فتصبح المرأة مستعبدة. أما إذا كان نظام الدولة على العكس دستوريا حصلت المرأة على حقها. والشريعة الإسلامية في جوهرها كفلت للمرأة المسلمة كافة الحقوق وساوت بينها وبين الرجل إلا أن الظروف التاريخية التي نكبت بها تلك الحضارة، وما نتج عنها من تراث فكري متحجر أدى إلى أن صارت هذه الحقوق حقوقا صورية فأصبحت المرأة المسلمة مجرد متاع وليس إنسانا له حقوقه. ولا يرى قاسم أمين أن العلاقة بين

---

(١) المرأة الجديدة - حرية المرأة.

(٢) المرأة الجديدة : الواجب على المرأة لنفسها.

شكل الحكم من جهة وعلاقة الرجل بالمرأة من جهة أخرى علاقة علية أى أن أحد طرفيها هو العلة والطرف الثانى هو المعلول، إنما يراها علاقة جدلية أى أن بين طرفيها تأثيرا متبادلا. وإذا ما طبقنا هذه الفكرة على المجتمع المصرى وجدنا أن النظام السياسى الاستبدادى الذى سيطر عليه لمدة طويلة انعكس بوضوح على علاقة الرجل بالمرأة. إلا أن الاستبداد السياسى يلفظ أنفاسه الأخيرة ولذا أصبح حتميا أن تتبدل علاقة الرجل بالمرأة. إلا أن هذا لا يحدث! فالإنسان المصرى لايزال خاضعا لسطان العادات والتقاليد والقيم البالية[1] إن الاصلاح يجد طريقه بسهولة لكافة الأوضاع فى المجتمع المصرى إلا وضع المرأة الذى بات يمثل بثباته على حاله تحديا للتطورالطبيعى والحتمى. ويلمح قاسم أمين فى أكثر من موضع إلى أن علماء الدين ومعظم المثقفين المصريين مسئولون عن هذا الوضع لأنهم لا يقومون بدورهم. فآفة علماء الدين والمثقفين فى مصر هى أمران ترديد وتكرار أفكار الغير دون تمثل والعزوف عن الاجتهاد[2]. لمح قاسم أمين إلى كسل العقل المصرى فى أكثر من موضع فى المرأة الجديدة وهو ما عبر عنه بصراحة فى «كلمات» : «الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون وإنما عقولهم هى مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة.. لا يضيفون أو يعقلون عليها شيئا من أنفسهم.. كل عملهم فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها»[3].

المرأة بطبيعتها مساوية للرجل فى العقل: هذا ما أثبته العلم الحديث . ويعرض قاسم أمين فى استفاضة لآراء العلماء المحدثين فى هذا

---

(١) المرأة الجديدة – المرأة فى حكم التاريخ.

(٢) المرأة الجديدة : حرية المرأة.

(٣) قاسم أمين : كلمات مطبعة الجريدة مصر سنة ١٩٠٨ ص ٢٤.

الشأن. والعلم الحديث يقر بأن ثمة اختلافات تشريحية وفسيولوجية بين الرجل والمرأة إلا أن هذه الاختلافات لا تعنى البتة أن الرجل أفضل وأرقى من المرأة إنما هى اختلافات أوجدها الله نظرا لاختلاف دور كل من الرجل والمرأة فى الحياة. ولا تندرج القوى العقلية ضمن هذه الاختلافات فقد أثبت العلم الحديث أن مخ المرأة لا يختلف فسيولوجيا عن مخ الرجل. وبالرغم من كل هذا فهناك اختلاف مشاهد حاليا لا يمكن إنكاره بين عقلية الرجل وعقلية المرأة إذ تفوق الأولى الثانية. ولا يرجع هذا الاختلاف إلى الفوارق الطبيعية إنما يرجع إلى. اختلاف فى التربية. تراكمت آثاره عبر الأجيال مما أدى إلى التباين بين الجنسين. وبمعنى آخر إذا كانت المرأة «تبدو» حاليا أقل شأنا من الرجل، فعلة ذلك فارق «صناعى» وليس فارقاً طبيعياً ، هو فارق صنعته الظروف الاجتماعية التى استمرت دهراً طويلاً وفرضت على المرأة هذه المكانة المتدنية. والدليل على أن هذا الفارق الحالى بين الرجل والمرأة من الناحية العقلية ليس فارقاً طبيعياً هو أن العديد من النساء برزن على مر العصور فى مجالات عدة عندما كانت تتاح لهن الفرصة، كما أن العصر الحديث يذخر بالعديد من العالمات الغربيات فى شتى فروع العلم والأدب. وفى كل معالجته لمسألة طبيعة المرأة يتضح أنه كان يرد على اعتراضات وجهت له على أثر نشره لتحرير المرأة. وتارة يكون رده علميا هادئاً وتارة يكون ساخراً متحدياً . فعلى سبيل المثال نراه يسخر من رأى العالم الأزهرى الذى احتج على دعوة قاسم أمين فى تحرير المرأة بأنه لم يسمع عن مخترعات، يسخر قائلا إن هذا العالم الأزهرى لم يسمع عنهن لأنه لم يطلع على التواريخ ولا على الأسفار التى تمتلئ بأسماء النساء النابهات فى شتى فروع العلوم والمعارف.[١]

---

(١) المرأة الجديدة - حرية المرأة، الواجب على المرأة لعائلتها.

والمرأة التى تتساوى والرجل فى القوى العقلية تتفوق عليه ببعض السمات الإنسانية الرقيقة فهى أكثر منه صبراً وتحملا وحباً للخير وسعياً لإسعاد الآخرين كما أنها أقل منه أنانية وشهوة.(١)

وكان قاسم أمين يعرف أى نوعية من المثقفين يخاطب فهو يخاطب مثقفين يمثل الفكر الدينى الدعامة الأساسية لفكرهم ولذا عرض لمسألة طبيعة المرأة فى رأى الإسلام فأكد على أن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة وأعلن حريتها وأعطاها حقوقها المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية وهو مالم تحققه كثير من الدول المتقدمة الحديثة للمرأة فى زماننا. إذا كان هذا هو رأى الدين من حيث المبدأ فإن واقع المجتمع الإسلامى يقول لنا عكس هذا إذ يكشف بوضوح عن إنحدار لمكانة المرأة فيه نتيجة بالطبع لأسباب سياسية واجتماعية عديدة. ومن هذه الأسباب التقاليد والقيم البالية التى كانت سائدة فى بعض البلاد التى فتحها الإسلام والتى لم ينجح بالرغم من كل قيمه العظيمة فى القضاء عليها وخاصة أن الحكومات الفاسدة المتعاقبة أبقت عليها لأن فى ذلك مصلحتها. ومن هذه الأسباب أن المجتمعات الإسلامية خلت واقعيا (لأن الإسلام قادر من حيث المبدأ على إقامة أفضل النظم) من النظم السياسية التى تحدد حقوق كل من الحاكم والمحكومين. ومن المعروف أن عدم وضع حدود لسلطة الحاكم مما يغريه بسوء استخدام هذه السلطة وبالاستبداد. ولما كان شكل النظام السياسى ينعكس على الأسرة فقد انعكس الاستبداد على علاقة الرجل بالمرأة وانعكس بالتالى على تصور طبيعة المرأة فجاء هذا الأخير ظالما لها قاسيا عليها.

عرض إذن قاسم أمين لطبيعة المرأة من كافة الجوانب من الناحية العلمية ومن الناحية الدينية ومن الناحية التاريخية. ليس هذا فحسب

---

(١) المرأة الجديدة : المرأة فى حكم التاريخ.

بل اجتهد في نقض الآراء البالية التي علقت بالأذهان واكتسبت سلطانا عليها بالرغم من كونها فاسدة. كان قاسم أمين يريد أن يعرِّف الناس بطبيعة المرأة الحقيقية حتى يصدروا حكما سليما عليها بدلا من إجبارها على أن تظل حبيسة الحجاب القاسي الذي لا يتناسب مع طبيعتها التي خلقها الله بها. وأول هذه الآراء البالية رأى ارسطو ومن ذهب مذهبه من أن الناس قسمان قسم سامي وهو قسم الرجال وقسم أدنى هو قسم النساء. ومن حق الأول التمتع بالحرية لاكتمال قدراته العقلية ، أما الثاني فقد كتب عليه الرق لنقص في عقله. وآمن أصحاب هذا المذهب أن هذا التفاوت بين الرجل والمرأة أمر طبيعي وفطرى لا يمكن التغلب عليه. والرأى العام المصرى يؤمن بهذا الرأى ولكن قاسم أمين الذى أخذ على عاتقه طرح مسألة طبيعة المرأة طرحا علميا لا يبالى بالرأى العام الذى تعوزه الموضوعية أو الذى يميل إلى الأخذ بالمعتاد التقليدى حتى ولو كان خاطئا وينفر من الجديد حتى ولو كان صوابا. وحمل قاسم أمين حملة عنيفة على الرأى العام الذى عانى منه طويلا قبل إصداره لكتابنا هذا والذى يعرف أنه لن يعتقد بعد اطلاعه على هذا الكتاب. إن الرأى العام عنده هو عدو التغيير وخادم الباطل، ولو انتظر المصلحون دائما إرضاء الرأى العام لما تغير العالم ولظل على حاله منذ بدء الخليقة[1]. وكان قاسم أمين يعرف جيدا أن أى جدل قد تحسمه كلمة باطلة تقذف من ضعيف النفس والعقل، كلمة تحكم على الموضوع الذى يدور بصدده الجدل بأنه «بدعة فى الإسلام».. ومثل هذا الشخص يفعل ذلك هروبا من مشقة الإدراك والبحث والعمل والتغيير[2] إن فكرة تنحية الرأى العام وعدم الاعتراف بقيمة حكمه فكرة جريئة للغاية وثورية تماماً من جانب

---

(١) المرأة الجديدة – حرية المرأة، كلمات : مطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٠٨ ص ٢٦، ٢٧.

(٢) المرأة الجديدة : المقدمة، تحرير المرأة ص٦.

قـــاسم أمـين. قـــد يبـــدو هذا الموقف فى ظاهره شكلا من أشكال الديكتاتورية الفكرية أو من التعالى الفكرى، وضربا من فرض الوصاية على فكر الشعب، إلا أنه فى حقيقته تقييم واقعى للرأى العام ولما يشكله، كما أن عدم المبالاة بالرأى العام خطوة ضرورية لمن يريد أن يبث فكرة جديدة أو يريد إحداث تطوير فى مجتمع غير مهيأ لذلك.

رابعاً : الحجاب :

عـالج قاسم أمين مشكلة الحجاب فى كتابه الذى نشره بالفرنسية عـام ١٨٩٤. «رد على دوق داركور»[1] وكان ردا على الكتاب الذى أصدره هذا الدوق عام ١٨٩٣ وكان عنوانه «مصر والمصريين»[2] وفيه بين أسباب تمسك المصريين بالحجاب دون أن يحاول تعريفه ولا تعيين حدوده. وعالج موضوع الحجاب فى «تحرير المرأة» الذى أصدره عام ١٨٩٩ فى فصل طويل يبلغ ربع الكتاب تقريبا وضح فيه موقفه منه فهو لا يرى «الآن رفع الحجاب بالمرة» بل هو ما يزال يدافع عن الحجاب الشرعى ويعتبره أصلا من أصول الأدب التى ينبغى الالتزام بها، وإن اجتهد طويلا لبيان الفارق بين الحجاب الشرعى والحجاب المتشدد الذى كان سائدا فى عصره. ولفت قاسم أمين النظر إلى أن الحجاب المغالى فيه يرجع إلى حب المغالاة فى الاحتياط وفى إظهار العمل بالأحكام الشرعية بينما الحقيقة غير ذلك. وفى «تحرير المرأة» بين أن الحجاب ما هو إلا طور من أطوار حياة المرأة وإن تلاشى فى كثير من الأمم نتيجة للتقدم [3] أراد قاسم أمين أن يفصل بين رأى العقيدة فى الحجاب وما أصبح عليه الحجاب فى زمنه، وكانت هذه تفرقة ضرورية تمكنه من

(1) Kassem Amin; Les Egyptiens. Réponse á M.Le Duc D'Harcourt. Jules Barbier. Le Caire 1894.
(2) Le Due f'Harcourt L'Egypte et les Egyptiens. Paris 1893.
(٣) تحرير المرأة - المركز العربى للبحث والنشر - القاهرة ١٩٨٣ ص ٦٤ إلى ١١٣.

مناقشة المشكلة بعيدا عن حساسيات العقيدة. والغريب أن كل من هاجموا قاسم أمين لم يلتفتوا إلى هذه التفرقة أو تجاهلوها، وأصروا على دحض آرائه اعتماداً على أدلة شرعية يفسرونها بما يفيد موقفهم. أما فى كتابنا «المرأة الجديدة» فقد ربط بين قضية التربية والحجاب وعالجها فى فصل طويل هو ربع الكتاب جعل عنوانه «التربية والحجاب». ولأنه سبق له طرح قضية الحجاب من كافة الجوانب فى «تحرير المرأة» فهو يعود إلى نفس المشكلة فى «المرأة الجديدة» ليؤكد مرة أخرى على أن الدين لا يجبرّ المرأة على تشديد الحجاب إنما من يفعل ذلك هم رجال الدين الذين يتهمهم بعدم إدراكهم لجوهر الإسلام. والحجاب عند قاسم أمين لا يعنى الحجاب فى الملبس بمعنى حجب الجسد، إنما الحجاب يعنى عنده فى المقام الأول أن «تحتجب (أى المرأة) بأن تقتصر فى بيتها وتستتر وجهها إذا خرجت»[1]. وهو كذلك فى «المرأة الجديدة» لم يدع أبدا إلى الخلاص من الحجاب الشرعي على عكس ما فهم أعداؤه. وفى رأيه أن الشريعة الإسلامية السليمة لا تفرض الحجاب بمعنى الحرمان من المشاركة الاجتماعية كما لا تفرض الحجاب القاسى المتعارض مع مصلحة المرأة فى حالات كثيرة والمتمثل فى حجب الوجه عند الخروج. ودليله على هذا أن الذين يفرضون مثل هذا الحجاب على المرأة يعجزون عن الاستناد إلى نصوص دينية صريحة ولذا يتحجبون لفرضهم الحجاب بأنهم يفعلون ذلك خشية عليها من الوقوع فى الخطأ لأن المرأة بطبيعتها ناقصة عقلا. ويلجأ قاسم أمين فى مناقشته لهذا الرأى الواهى، الذى يبنى عليه أصحابه نظريات خيالية لا أساس لها من الواقع، إلى المنطق والعلم من جهة وإلى الواقع من جهة أخرى يقول فى سخرية ولم لا يفعل نفس الشئ مع تسعين فى المائة من

---

(١) المرأة الجديدة – حرية المرأة.

الرجال المعرضين للوقوع في الخطأ؟ وقاسم أمين يستند هنا إلى قانون منطقى معروف فالمقدمة إذا لم تكن من البديهيات المعروفة عند أهل النظر أفلا يصح أن تعد مقدمة لدليل.[١].

ولم يفت قاسم أمين المفكر الاجتماعى أن يلحظ تفشى ميل المرأة للرذيلة فى المجتمع الذى يعيش فيه، ولكنه لكونه كذلك مفكراً اجتماعياً اعتبر هذا الميل ظاهرة هى نتيجة لسبب وليست سببا يدعو لفرض الحجاب على المرأة. وما سبب هذا العيب فى المرأة فى مجتمعنا المصرى وقتذاك إلا هذا الحجاب نفسه والسجن اللذان فرضا على المرأة فرضا. فالعلم يقول إن الحجاب من شأنه أن يخل بنظام الجسد (أى جسد سواء أكان جسد المرأة أم جسد الرجل) وهو يضعف الأعصاب مما يجعل القوى النفسانية تختل. فالاحتجاب عن المجتمع والبطالة من شأنهما قتل كل فضيلة فى أى نفس. وهو يحارب الحجاب القاسى لهذا السبب أى لأنه يضر بالمرأة نصف المجتمع و«ميزانه» أما الدليل الآخر على صحة هذه الحقيقة العلمية فهو المشاهد فى الواقع. فمن الملاحظ أن النساء اللاتى لا يعملن خارج منازلهن لا يجدن وقتا لأداء واجباتهم الأسرية تجاه الزوج والأولاد. أما النساء اللاتى يعملن مثل الأوروبيات فإنهن ينظمن وقتهن بحيث ينجحن فى أعمالهن ويقمن بواجباتهن تجاه أسرهن على خير وجه. وإذا كانت المرأة المصرية تميل للرذيلة فذلك لا يرجع لطبيعة المرأة إنما يرجع فى الحقيقة إلى ظروف المرأة المصرية. وثم دليل أخير أكثر وضوحا استقاه قاسم أمين من المجتمع المصرى ويتمثل فى كون النساء اليهوديات والمسيحيات المصريات المتحررات من الحجاب المتشدد، يتحلين بالفضيلة[٢].

---

(١) نفس المصدر السابق – نفس الموضع.

(٢) المرأة الجديدة : حرية المرأة.

وثمة حجة أخرى على ضرورة التخلص من الحجاب وهو اتفاق علماء الغرب على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق وأن التخلص من قيود الحجاب كان وراء تقدم الغرب. وهم متفقون على هذا الأمر لأن مناهجهم العلمية الدقيقة هي التي قادتهم إليه.[1]

وفوق كل هذا فالحجاب أثر من آثار الاستبداد الذى كبل الحياة السياسية المصرية لمدة طويلة نظرا لكون الأسرة وكل قيمها وتقاليدها تعكس بصدق شكل النظام السياسى الذى تعيش فى كنفه. لقد فرض الحجاب قديما على المرأة لإعلان ملكية الرجل لها واستئثاره بها، أما الآن وقد مضى هذا الاسترقاق إلى حال سبيله فكيف نقبل أن يظل مظهره موجودا فى مجتمعنا. إن الخلاص من الحجاب بمعناه الكريه أول خطوة فى سبيل حرية المرأة.

ويقدم لنا معيارا دقيقا للحكم على مسألة الحجاب ألا وهو المنفعة العامة التى يحددها الفكر السديد والتى لابد أن تكون هى الحق الذى يقول به الشرع. إن الشرع لا يهدف إلى إضرار الناس بل إلى نفعهم. إن الحجاب ضار لأنه يحرم المرأة من حق فطرى لها وهو حريتها، ويمنعها من استكمال تربيتها. ليس هذا فحسب بل هو يحرم الزوج من مشاركة زوجته له فى حياته الروحية والعقلية، تلك المشاركة التى هى السعادة بعينها. وهو يحرم الأولاد من تربية أم واعية استنار عقلها بالتعليم وبالتربية وبالمشاركة فى الحياة. وصحيح أن تخفيف الحجاب إلى حد كبير أدى إلى فساد الأخلاق فى بعض الحالات فى المجتمع المصرى، ولكن الحل فى رأى قاسم أمين، ليس فى الرجوع إلى الوراء وفى تغليظ الحجاب بل الحل وهو الحل العلمى الذى يتمثل فى دراسة هذا العيب وفى معالجته.[2]

---

(١) نفس المرجع السابق - نفس الموضع.

(٢) المرأة الجديدة - نفس الموضع.

وقاسم أمين لا يريد الحرية للمرأة المسلمة فى المجتمع الشرقى لأنها شعار جميل وفكرة جديدة، إنما هو يريدها لهدف إنسانى وقومى. كانت الحرية دائما فى رأيه هى أساس كل تقدم وكل رقى حققه الرجل. كانت الحرية عنده هى «أساس كل عمران» فلم لا نعطى هذا الأساس للمرأة لتحقق بدورها ما حققه أخوها الإنسان - أى الرجل. كان قاسم أمين عاشقا للكمال ساعيا لإزالة العراقيل التى قد تعوق تحققه وما كل جهده فى سبيل تحرير المرأة من حجابها إلا لإعطائها فرصتها لتحقيق كمالها.

لم يغير قاسم أمين موقفه من الحجاب أبدا منذ أول سطر سطره حتى صياغته للمرأة الجديدة ولذا لنا أن نعجب من الذين يرون تغيرا جذريا فى موقفه تجاه هذه المشكلة مدعين أنه فى «المصريون» كان مدافعا عن الحجاب رافضا له بعد ذلك فى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ويتخذون من هذه الحجة دليلا على أنه ليس صاحب «تحرير المرأة» الذى اختلف موقفه فيه تماما عما كان عليه فى «المصريون».

خامسا: تربية المرأة وتعليمها هو السبيل الوحيد لتقدم المجتمع:

كانت العائلة فى نظر قاسم أمين - وهذه حقيقة اجتماعية علمية لا نقاش فيها - هى المحيط الأول الذى يربى الطفل فى كنفه، أما المحيط الثانى فهو المجتمع الذى يخرج إليه الإنسان فى مرحلة لاحقة عندما يكتمل تكوينه الأول والأساسى الذى لا يمكن تغييره . إن المرأة هى التى تحدد نوعية العائلة لأنها هى محورها، ولذا فقد أقامت المدنية الحديثة فى رأيه بناءها الشامخ لأخذها بهذه الفكرة وجعلها الأساس الذى قامت عليه. وكل من يريد إصلاح مجتمع فلا بديل عنده إلا إصلاح وضع المرأة. وهذا الأمر لا يتم بعصا سحرية ولا بقرار إنما يتحقق بالعناية بالمرأة منذ مولدها، أى بتربيتها وبتعليمها . يقول فى آخر سطور كتابنا هذا «نحن نعلم أن تغيير النفوس لا تنفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر

سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى وإنما يتم ما ذكرناه بإعداد نفوس الناشئين إلى الحال المطلوب إحداثها » ونفس الفقرة يرددها فى « أسباب ونتائج »[1]. ارتقاء الأمم يحتاج إذن ضمن ما يحتاج إلى ارتقاء المرأة. وانحطاط الأمم ينشأ عن عدة عوامل على رأسها انحطاط المرأة. إن انحطاط مكانة المرأة عندنا هو أهم عائق يقف فى سبيلنا إلي التقدم الذى فيه صلاحنا . مشكلة المرأة إذن ليست من المشاكل التى تحتمل التأجيل بل هى من الضرورات الملحة التي يجب البدء بها ، فإذا وجدنا لها حلا سهل علينا بعد ذلك كل إصلاح.[2] وحل كل مشكلة المرأة يتمثل في تربيتها التربية السليمة فى رأى قاسم أمين. كان قاسم أمين يؤمن بأن التربية تلعب دوراً جوهريا فى تشكيل الإنسان بل فى استطاعتنا تعديل الاستعدادات الطبيعية الوراثية إلى حد ما. وما التربية إلا تعويد الطفل على حسن الفعل وعلى التحلى بالقيم والخصال الحسنة. والطفل يكتسب هذه العادة بغريزة التقليد لديه لو أن أمه جاهلة. تربية المرأة إذن أمر ضرورى لها ولأبنائها وهم رجال المستقبل. وكان قاسم أمين يرى أننا نبالغ فى تقليل شأن تأثير الأم على أبنائها عندما نعتقد بأن الله هو الذى يخرج الفاسد من الصالح والصالح من الفاسد. والله بالطبع قادر على ذلك لو شاء، ولكن حقيقة الأمر أن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاما وللمخلوقات قوانين تتحكم فيها من هذه القوانين أن الأم هى التى تشكل الأبناء.

ومن حق المرأة أن تنال نفس التربية للرجل فهى تحتاج مثله للتربية الجسمانية والتربية النفسية أو الأدبية، وإلى التربية العقلية بل والجمالية. ويحرص قاسم أمين. على تأكيد أن تصوره لتربية المرأة

---

(١) قاسم أمين : أسباب ونتائج – نقلا عن مجلة الهلال – المطبعة الجمالية مصر بدون تاريخ ص٧١.

(٢) المرأة الجديدة : الواجب على المرأة لعائلتها – الخاتمة.

المسلمة المصرية ليس تصوراً نظريا استقاه من قراءاته لعلماء الغرب فحسب إنما هو مؤسس على المشاهدة والتجربة[1].

إن العقل السليم فى الجسم السليم وهذا ما أثبتته تجارب الأمم التى سبقتنا للنهوض والترقى. ويشير فى هذا الصدد إلى الكتاب الذى ترجمه صديقه أحمد فتحى زغلول من الفرنسية ونعنى به «سر تقدم الانجليز السكسونيين»[2] والذى يبين أن جميع مزايا الانجليز جاءت نتيجة لحسن التربية البدنية التى يتلقونها.

أما التربية النفسية فمما لا غنى عنها للإنسان سواء أكان رجلا أم امرأة لأن الإنسان يولد فى رأيه شريراً والتربية هى التى تجعله يسمو وهى التى تهذبه. والمرأة أحوج إلى هذا النمط من التربية من الرجل لأن الطبيعة عهدت للمرأة بمسئولية تربية النوع. وكان ثم شبه اتفاق بين مفكرى مصر فى ذلك الحين وهو ما يشير إليه قاسم أمين، على أن التربية الأدبية أو «تربية النفوس» كما يسميها هى العلاج الوحيد لكل عيوب المجتمع المصرى. وقد شاع هذا الرأى لا فى الكتب فحسب بل فى الجرائد أيضا وفى أحاديث المجالس حتى أصبح رأيا عاما دون أن يجد مع هذا صدى لدى المسئولين المعنيين بالتربية[3].

أما النوع الثالث من التربية الذى رآه قاسم أمين ضروريا للمرأة فهو التربية العقلية أى التعليم الذى يتيح لصاحبه إدراك الكون والعمل وفقا

---

(١) المرأة الجديدة - حرية المرأة.

(٢) أدمون ديمولان: سر تقدم الإنجليز السكسونيين - الطبعة الثانية المطبعة العثمانية ١٨٩٩.

(٣) المرأة الجديدة : التربية والحجاب.

لهذا الفهم بما يحقق المنفعة والسعادة. والتربية العقلية التى يراها قاسم أمين ضرورية للمرأة هى تعلم القراءة والكتابة واللغات الأجنبية فضلا عن تعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية. وفى هذا الموضع كان لقاسم أمين لفتة آية فى الفطنة والعمق فهو قد تبين أن هدف التربية العقلية ينبغى ألا يكون حشو العقل بمعلومات (وهو العيب الذى يقضى على كل محاولات الإصلاح التعليمى عندنا) إنما ينبغى أن يكون تشويق العقل للبحث عن الحقيقة. وإذا اكتملت التربية العقلية للمرأة تحقق كمالها. يقول فى عبارة رائعة: «كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة على جمال المرأة وعقل الرجل».[1] ويذكر قاسم أمين الاعتراض التقليدى على تعلم المرأة أو على تربيتها العقلية والذى كان يتردد فى ذلك الحين فى المجتمع المصرى وهو أن التعليم يفسد أخلاق المرأة. ويرجع ذلك الاتهام إلى أنه قد رسخ فى أذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان بينما العكس هو الصحيح. فالتعليم خاصة إذا كان مصحوبا بتهذيب الأخلاق يسمو بالمرأة ويكمل عقلها ويجعلها تحسن التصرف. إن التربية النفسية هى التى تكون المرأة الطاهرة العفيفة أما التعليم أو التربية العقلية فهو الذى يجعلها تزداد طهارة وصلاحا وتقوى[2].

ويجب كذلك «تربية الذوق عند المرأة» وذلك بتعلمها للموسيقى وفن التصوير [3] أما إعداد المرأة لتقوم بأعباء منزلها فمما لا يعنى به

---

(١) كلمات . ص ٨

(٢) المرأة الجديدة : التربية والحجاب.

(٣) نفس المرجع السابق ونفس الفصل.

قاسم أمين إلا في سطر ونصف عندما يقول «وأضيف على ذلك أنه ينبغي على البنت أن تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت[1]. وفي اعتقادي أن هذا المرور السريع على هذا الجانب من تربية المرأة ليس مرجعه إلى استخفاف قاسم أمين به إنما مرجعه إلى أنه كان يعرف أن تربية المرأة في عصره لم تكن تعنى إلا بهذا الجانب فهو مما لا يحتاج لحديث مصلح مثله يريد لفت النظر إلى ما لا يلقى عناية بالرغم من أهميته القصوى.

بعد أن ينتهي تعليم المرأة وتربيتها عند سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة كيف تعيش بعد ذلك، أتحتجب في البيت وتمنع من مخالطة الرجال أم تطلق لها الحرية؟ كان المنتقدون لتحرير المرأة يرون أن الحجاب لا يتعارض وتربية المرأة وأن رفع الحجاب ما هو إلا تقليد من التقاليد الأوروبية غير السليمة[2] كان الخلاف الأساسي بين قاسم أمين وبين معارضيه يتمثل في فهم كل من الفريقين لمعنى التربية. فمعارضوه يرونها في تمام مرحلة تعليمية وفي الحصول على شهادة، بينما يراها هو في تكوين الاستعداد لتكميل العقل والخلق سواء عند الفتاة أو الفتى، وذلك لا يتحقق إلا بالاختلاط وبالمشاركة في المجتمع أي من خلال التجربة والتطبيق.

إن التطبيق هو الوسيلة الوحيدة لتمثل ما نتعلمه ولنستوعبه وإلا

---

(١) المرأة الجديدة : التربية والحجاب.

(٢) نفس المرجع السابق وانظر للمقارنة ما جاء عند: محمد طلعت حرب: تربية المرأة والحجاب مطبعة المنار الطبعة الثانية - مصر سنة ١٣٢٣هـ ص ٦٦ وما بعدها.

لظل ما نتعلمه فى العقل مجرد مجموعة من الألفاظ. والحجاب هو الذى يحول بين المرأة وبين التجربة. لا يكفى أن تتعلم المرأة بضع سنين ثم تحجب فى بيتها بقية عمرها، بل لابد أن تشارك فى الحياة. [1]

عنى قاسم أمين بتربية المرأة كل هذه العناية لأنه اعتقد أن للمرأة دورا عظيما فى إعداد المجتمع ولأنه لاحظ المستوى المتدنى الذى هوت إليه المرأة المصرية، فهى غارقة فى الجهل والخرافات مما له أسوأ أثر فى الصغار رجال المستقبل. بل لقد أصبح عمل المرأة المصرية الوحيد هو هدم ما تبنيه المدرسة فى عقل الصّغير وفى نفسه؛ وهى تفعل هذا بيسر شديد وبدون أية مقاومة منه لقربها منه ولحبه لها. وليت الأمر يقف عند حد هذه المضار، بل إن إهمال تربية المرأة وتعليمها أدى إلى قتلها لأولادها! ويتضح هذا لو تأملنا إحصائيات وفيات الأطفال فى القاهرة مثلا. إن التربية الجسمية للطفل تحتاج إلى الإلمام بمعارف عديدة متعلقة بالأمور الصحية، أما التربية النفسية فتستدعى أن تكون الأم ملمة بوظائف القوى العقلية وبالأمور النفسية. [2]

وليس دور المرأة الوحيد فى الأسرة وفى المجتمع هو تربية الأبناء وحفظ حياتهم بل إن المرأة ملزمة بدور آخر هو الوقوف بجوار رجلها سواء كان هذا الرجل هو الزوج أو الأب أو الأخ وذلك بأن تيسر له وسائل النجاح وبأن توفر له أسباب الراحة ليتفرغ لعمله، وبأن تشجعه. فلو كانت جاهلة لا دراية لها بشئ من أمور الدنيا لعجزت عن إدراك

---

(١) المرأة الجديدة : التربية والحجاب.

(٢) المرأة الجديدة : الواجب على المرأة لعائلتها.

هذا الدور الهام، أما إذا كانت معدة له لكان تأثيرها عظيما.[1] كان قاسم أمين يريد للمرأة المسلمة المصرية أن تصبح صديقة للرجل ومشاركة له فى كل الأمور وليست مجرد آلة للمتعة.

وثمة ضرورة أخرى لتربية المرأة وهى ضرورة الاحتياط للمستقبل، فقد تضطر المرأة للعمل لإعالة نفسها أو إعالة أولادها بل تزداد أعباؤها أحيانا إلى حد ضرورة إعالتها لبعض الأقارب من العاجزات. والشواهد تشير إلى ازدياد احتياج المرأة للعمل فى المستقبل إذ أن تقدم المدنية يرتبط دائما بزيادة نسبة اللاتى لا يتزوجن. إن التربية والتعليم السليمين للمرأة يضمنان استقلالها الاقتصادى عند الحاجة وبالتالى يضمنان لها حريتها وصون كرامتها. [2] ربط قاسم أمين بقوة بين الحرية الشخصية وبين الاستقلال الاقتصادى، وعبر عن هذه الفكرة فى كل مؤلفاته خاصة فى كتابنا هذا وفى أسباب ونتائج.[3]

كان قاسم أمين يريد أن يخلق بالتربية السليمة «المرأة الجديدة» تلك المرأة التى تكون لنفسها فى المقام الأول ولا تكون متاعا للرجل. وهى قادرة على تحمل المسئولية وقادرة على الاستقلال بحيث تجد «أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها».[4]

وبالرغم من كل هذه العناية بتربية المرأة وبتعليمها فلم يكن قاسم

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق : التربية والحجاب.

(٣) أسباب ونتائج ص ٢٣.

(٤) المرأة الجديدة : الواجب على المرأة لنفسها.

أمين يبغى أن تنافس المرأة الرجل فى المجتمع المصرى بل كل ما كان يبغيه هو إعدادها بحيث تكون مفيدة لأسرتها وبالتالى لمجتمعها على النحو الذى بينه. كان قاسم أمين الذى يؤمن بالتغيير التدريجى وليس الجذرى المفاجئ لا يطمع فى أن تفيد المرأة «الأمة مباشرة باختراعاتها العملية ومذاهبها الفلسفية». (١)

وهو إذا اتخذ من نظام تربية المرأة الغربية نموذجا يحتذى بالنسبة للمرأة المصرية فإنما يفعل ذالك لسببين . أولهما أنه بحث طويلا عن نظام لتربية المرأة المسلمة عند علماء المسلمين سواء المتقدمين أو المتأخرين فلم يجد شيئاً حتى كتاب الشيخ حمزة فتح الله الذى قرأه بناء على نصيحة أحد الأصدقاء فهو يحتوى على كل شىء إلا تربية المرأة. ويتحدى قاسم أمين بجرأة الواثق من إحاطته بالموضوع، يتحدى معارضيه أن يدلوه على كتاب إسلامى سواء أكان قديما أو حديثا يعالج حقوق المرأة وتربيتها. السبب الثانى الذى من أجله اتخذ من نظام تربية المرأة الغربية نموذجا لتربية المرأة المسلمة هو مالاحظه من نجاح الغرب المضطرد وهو النجاح الذى يتمناه والذى يرجع فى المقام الأول للتربية السليمة التى يتلقاها فيه كل من الرجل والمرأة على السواء.

آمن قاسم أمين بأن السبيل الوحيد للنهوض بالمجتمع ولإصلاحه هو تحرير المرأة، وبأن السبيل الوحيد لتحرير المرأة هو تربيتها تربية سليمة، ولذا جعل هذه القضية هى رسالته فى الحياة حبا فى وطنه. حدد لنفسه

---

(١) المرأة الجديدة : الواجب على المرأة لعائلتها.

هدفا دقيقا، الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى التخطيط والعمل ورفض أن يبعثر الجهد فى الكلام عن غايات رائعة ولكنها غير محددة، ولم تدرس وسائل تحققها بعناية. يقول فى ختام «المرأة الجديدة» «نحن لا نقول لكم كما يقول غيرنا اتحدوا وكونوا عونا بعضكم لبعض أو طهروا أنفسكم من العيوب التى تعهدونها فى أخلاقكم أو اخدموا أهلكم ووطنكم أو ما يماثل ذلك من الكلام الذى يذهب فى الهواء. نحن نعلم أن تغيير النفوس لا ينفع فيه نصيحة مرشد ولا أمر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولى إنما يتم كما ذكرناه بإعداد نفوس الناشئين إلى الحال المطلوب إحداثها »[1] الوسلية الوحيدة للتغيير عند قاسم أمين كانت العمل القائم على التخطيط، آمن بهذا وحققه فعاش فكره إلى يومنا هذا واستحق أن يدرس وأن يستعان به.

كانت هذه هى أهم القضايا التى أثارها قاسم أمين وعالجها فى «المرأة الجديدة» وكلها سبق له طرحها فى «تحرير المرأة» بشكل أقل اكتمالا ، وكلها كانت بداياتها فى «المصريون» وكلها عولجت أجزاء منها فى «أسباب ونتائج» وفى كلمات» ولكن بقيت قضيتان تمسان فكر قاسم أمين وجب علينا معالجتهما: أولاهما اتهامه بأنه ليس صاحب «تحرير المرأة» وثانيتهما أنه لم يأت بجديد فكل ما قاله فى «تحرير المرأة» ثم فى «المرأة الجديدة» سبقه إليه آخرون.

سادساً : مناقشة بعض القضايا:

من ضمن ما اتهم به قاسم أمين «ومحمد عبده كذلك فى رأيى»

(١) المرأة الجديدة : خاتمة - حالة الأفكار الآن بالنسبة للنساء.

أنه ليس صاحب «تحرير المرأة» أو على أفضل الفروض ليس صاحبه كله، إذا أن صاحبه الحقيقي ومحرر بعض أجزائه هو الشيخ الإمام. وبالرغم من أن هذه القضية أثيرت بصدد «تحرير المرأة» إلا أنها تخص كذلك «المرأة الجديدة» إذ أن هذا العمل الأخير ما هو إلا بلورة وإيضاح للقضايا الأساسية التى طرحت فى «تحرير المرأة» ويستند أصحاب هذا الرأى إلى أن قاسم أمين فى «المصريون » كان يهاجم الاختلاط ويحبذ الحجاب ويرى أن دور المرأة الوحيد: هو البقاء فى المنزل، ويدافع عن حرية الرجل فى الطلاق، فإذا به فى «تحرير المرأة» يتخذ موقفا مضادا من كل هذه القضايا. وأصحاب هذا الرأى يكونون سلسلة طويلة بدأت فى زمن قاسم أمين وانضم إليها فى أيامنا هذه محقق الأعمال الكاملة لقاسم أمين الدكتور محمد عمارة. ويذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن قاسم أمين لم يكن متبحراً فى العقيدة والشريعة بحيث يستطيع أن يذكر كل هذه المصادر التى وردت فى «تحرير المرأة» . وإذا رد عليهم مدافع عن قاسم أمين بأن الرجل درس القانون والشريعة وعمل بالقضاء لسنوات طويلة، ردوا عليه بأنه كان كذلك قاضيا للقانون وللشريعة قبل أن ينشر «المصريون» ومع هذا جاء موقفه فيه لايدل على هذا التبحر المشار إليه[1].

وليت الاتهام الموجه لأمانة الرجل العلمية ونزاهته الفكرية وقف عند هذا الحد بل يذهب البعض إلى أن اللورد كرومر استاء مما جاء فى

(١) محمد عمارة، قاسم أمين – الأعمال الكاملة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت سنة ١٩٧٦ ص ٥٧ – ٨٠.

«المصريون» من تشدد دينى وقومى فأوحى لمحمد عبده أن يطلب من قاسم أمين أن يصلح خطأه، فاستجاب قاسم أمين بمعاونة محمد عبده بأن وضعا سويا «تحرير المرأة» [1].

وذهب البعض ومنهم فارس باشا نمر صاحب المقتطف وداود باشا بركات إلى أن الذى أمر قاسم أمين بوضع «تحرير المرأة» كانت الأميرة نازلى هانم فاضل حفيدة إبراهيم باشا لأنها كانت المعنية من هجوم قاسم أمين فى المصريون «على المتفرنجات». ويتطاول البعض إلى حد تأكيد أن محمد عبده هو الذى وضع «تحرير المرأة» ونسبه لقاسم أمين تجنبا للحرج وللعاصفة المنتظرة[2].

وهكذا كان محمد عبده جبانا فى رأى هؤلاء يخشى الرأى العام وهو الذى قدم للفكر وللمجتمع الإسلامى ما قدم، وكان قاسم أمين أبله يقبل أن تصوب السهام له بدلا من غيره وأن يكون شهيد معركة لا شأن له بها.

وفى محاولة من الدكتور عمارة لتأييد هذ الاتهام «بشكل» علمى يقول :-

١ - إنه كان من الشائع وقت ظهور «تحرير المرأة» أن ينشر البعض أعمالهم بأسماء غيرهم فالأفغانى كان ينشر أفكاره بأسماء تلاميذه ومحمد عبده وقع كثيراً من مقالاته بإمضاء «مؤرخ»

---

(١) الجريدة: ٢٨ أبريل ١٩٠٨ عن د. ماهر حسن فهمى: قاسم أمين: سلسلة أعلام العرب - ٢٠.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٨.

أو «عالم فاضل»[1] وردنا على الدكتور عمارة أنه إذا كان الأمر كذلك فلم لم ينشر الشيخ الإمام «تحرير المرأة» بنفس الطريقة بدلا من التضحية بقاسم أمين؟.

٢ - إن اشتراك أكثر من مفكر فى إنجاز عمل فكرى واحد كان مألوفا فى ذلك الحين . وما حدث فيما يتعلق «بتحرير المرأة» أن قاسم أمين اجتمع عام ١٨٩٧ فى چنيف والشيخ الإمام وسعد زغلول ولطفى السيد وقرأ على الشيخ الإمام بعض فصول من كتابه فكان يوافق على ما فيها ، وقيل إنه كتب له بعض أجزائه التي يشى أسلوبها بهذه الحقيقة.[2]

وردى على هذا الاتهام أنه لايعيب قاسم أمين أن يكون قد قرأ أجزاء من كتابه على الشيخ الإمام يسأله الرأى ويستفتيه، وهو ما يفعله الباحثون فى كل زمان وحتى الآن، بل يفعلون أكثر من ذلك وهو أن يرجعوا إلى أهل الثقة ينقلون عنهم جزئيات وبعض الآراء دون أن يتهموا بالسرقة . إن الآراء المأخوذة عن الغير إذا ما أدرجت فى بنية فكرية جديدة ووظفت من أجل إحكام بناء هذه البنية تصبح جزءا منها تكتسب دلالة جديدة لأنها تلعب فيها دورا جديدا. وإذا كان الشيخ الإمام قد عاون قاسم أمين - فرضا - فى الناحية الشرعية فهو لم يكن يستطيع أن يجعله يطرح قضية المرأة هذا الطرح العلمى المتكامل الذى يدل على إحاطة دقيقة بنتائج شتي العلوم الحديثة الطبيعى منها

---

(١)، (٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٩، د. ابراهيم عبده - درية شفيق: تطور النهضة النسائية فى مصر - القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٢ - ٧٥.

والاجتماعى والذى أتاحته لقاسم أمين ثقافته الغربية. ومن المعروف أن منهج الشيخ الإمام بالرغم من قيمته كان مختلفا عن منهج قاسم أمين . فمنهج قاسم أمين هو منهج عالم الاجتماع الذى وقف على آخر ما وصلت إليه هذه المناهج. فضل قاسم أمين وجدّته يرجعان للمنهج الذى التزم به وليس إلى بعض الآراء التى يمكن أن يكون قد أخذها عن الشيخ محمد عبده أو غيره.

٣ - إن للشيخ محمد عبده كثيراً من الكتابات التى تتناول نفس الموضوع وتردد نفس الآراء من قبيل مقالته فى الوقائع المصرية «حاجة الإنسان إلى الزواج »[١] «حكم الشريعة فى تعدد الزوجات » فى العدد التالى. [٢] وردنا على هذا أن قاسم أمين كان يقر بأن قضية المرأة كثر تناولها فى أيامه ولكنه كان يريد طرح هذه القضية بشكل جديد ابتغاء حلها حلا عمليا وليس شرعيا فحسب.

ويقدم الدكتور عمارة محقق الأعمال الكاملة لقاسم أمين عدة أدلة «علمية» أخرى تقوم على مفاهيم عجيبة من قبيل «الحرج» و«الإحراج» وينتهى إلى أن مما لاشك فيه أن الفصول التى تتناول الحجاب والزواج وتعدد الزوجات والطلاق فى «تحرير المرأة» هى فكر خالص وصياغة خالصة للإمام . ودليله على هذا أن جاء فيها من آراء فقهية ومن مناقشات لم يكن فى إمكانية كاتب مثل قاسم أمين أن يقوم بها، إذا لم

---

(١) الوقائع المصرية - العدد ١٠٥٥ - ٧ مارس ١٨٨١.

(٢) د. محمد عمارة : نفس المصدر السابق ص ١٤٠.

يكن لثقافة قاسم أمين الفقهية مهما كانت درجتها أن تبلغ حد الإحاطة حتى بأسماء المؤلفات التى ذكرت فيه [1] ولو كان الدكتور عمارة محقق الأعمال الكاملة لقاسم أمين وأول من نسر الترجمة العربية لكتاب «المصريون» « وهو يفخر بذلك كثيراً فى أكثر من موضع » وهى ترجمة دقيقة متقنة قام بها المرحوم الأستاذ محمد البخارى، لو كان تمهل قبل إصدار حكمه على «تحرير المرأة» حتى يستوعب جيداً ما جاء فى «المصريون» لتبين له أن قاسم أمين كان ذا ثقافة فقهية واسعة فهو يذكر أسماء فقهاء وعناوين مؤلفاتهم عجز د. عمارة عن التحقق من حقيقة بعضها ويكفى أن نقرأ تعليق د. عمارة على اسم محمد بن عبد الله الإسكافى لتتحقق من ذلك [2].

وفى اعتقادى أن كل هذه القضية قد أثيرت لأن موقف قاسم أمين فى «المصريون» كان مختلفا بعض الشىء عن موقفه اللاحق فى كل من «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة». وحقيقة الأمر أن هذا الاختلاف راجع إلى التطور الطبيعى الذى يطرأ على الفكر الذى يتطلع إلى التقدم لا إلى الثبات، وراجع من جهة أخرى إلى الظروف الانفعالية التى وضع فيها قاسم أمين «المصريون» فهو قد شعر بالإهانة من قبل هذا الفرنسى الذى حلق فوق المجتمع المصرى كأى سائح ثم نقده بشراسة لأنه لم يدرك حقيقته، ومرض عدة أيام شرع بعدها فى «الرد» عليه. الكتاب كله إذن هدفه الدفاع عن مصر والمصريين وليس هدفه طرح القضايا - ومنها

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٤٣ إلى ١٤٦.

(٢) نفس المصدر السابق : المصريون ص ٢٩٠ إلى ٣٠١.

قضية المرأة - طرحا علميا.

والمتـأمل لمذكـرات قـاسم أمين التى نشـرت بعـد وفـاته بعنوان «كلمات» ولمقالاته فى المؤيد التى نشـرها متـتابعـة حتى عام ١٨٩٨م والتى جمعت ونشـرت بعد وفـاته تحت عنوان «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» وهى تلك المقالات التى قسمـها الدكتـور عمـارة إلى عملين منفصلين.. مثل هذا المتأمل لابد له أن يتبين أن قاسم أمين أعاد النظر فى كثير من القضايا وفى كثير من مشاكل مجتمعه و تخلص من نزعته الحماسية الذاتيـة التى تجلت فى «المصريون» لينظر لهذه القضايا ولهذه المشاكل بنظرة موضـوعيـة واقـعية عملية بهدف إصـلاحها. يقـول فى كلمـاته: «لم يتـجـه فكر البـاحـثين إلى انتـقـاد المسـائل الدينيـة والاجتـمـاعيـة والمتعلقة بالأحوال الشخصيـة والعادات والأخلاق لأنهم يرون العيوب ولا يجرؤون على إظهارها [1] وقرر هو ألا يخاف فتغيرت كتاباته.

أما ثاني القضايا التى يثيرها فكر قاسم أمين فهى قضية ريادته فى مجال مشكلة المرأة. البعض يعترف له بهذه الريادة مثل الدكتـور/ محمد حسين هيكل [2]، والأغلبية تنكر عليه ذلك بحجة أن هناك من سبقه إلى الكتابة فى هذا الموضوع. فهناك أحمد فارس الشدياق التركى (١٨٠٤ - ١٨٨٨) الذى عالج مشكلة المرأة المسلمة الشرقية قبل أن

---

(١) قاسم أمين : كلمات : مطبعة الجريدة - مصر ١٩٠٨ - ص ٤٩.

(٢) تراجم مصرية وعربية - القاهرة بدون تاريخ ص ٥٢.

يولد قاسم أمين فى صحيفة «الجوانب» . وهناك من يرجع هذه الدعوة إلى ما قبل ذلك ويرى أصولها عند رفاعة رافع الطهطاوى فى «المرشد الأمين لتربية البنات والبنين» فى بداية السبعينيات من القرن الماضى. وإذا أردنا حصر أهم الأعمال التى تناولت ذات المشكلة قبل قاسم أمين لقلنا على سبيل المثال إن هناك «الرحلة الأصمعية» الذى ظهرت ترجمته العربية عام ١٨٩٣ أى قبل «تحرير المرأة» بست سنوات [١]. وفيه يتناول صاحبه جميع اعتراضات الأوروبيين على الشرقيين.

وهناك مقالة العالم الهندى القاضى أمير على التى ترجمت إلى اللغة العربية ونشرت فى المقتطف وكانت تدعو إلى دعوة قريبة من دعوة قاسم أمين. وهناك أيضا كتاب مرقص فهمى المحامى المصرى القبطى «المرأة فى الشرق» الذى وضعه عام ١٨٩٤ والذى يلمح البعض إلى أنه يحتوى بين جنباته على كل تفاصيل دعوة قاسم أمين من تخفيف للحجاب وإباحة للاختلاط وحجر للزواج بأكثر من واحدة. ولقد كان هذا الرجل جرئيا فحلل زواج الأقباط من المسلمات هادفا من ذلك إلى القضاء على التعصب. ولم يلق هذا الكتاب الخطيرة كل هذا الاهتمام الذى لقيه «تحرير المرأة» ولم يثر الزوبعة التى أثارها كتاب قاسم أمين لأنه لم يقل أنه يدعو دعوته باسم الدين [٢].

---

(١) محمد طلعت حرب : تربية المرأة والحجاب - مطبعة المنار - الطبعة الثانية مصر ١٣٢٢ صفحة ١٦.

(٢) محمد طلعت حرب : فصل الخطاب فى المرأة والحجاب - مطبعة الترقى مصر ١٩٠١ ص ٨.

ومن الباحثين من يرى أن قاسم كان رائد الدعوة لتحرير المرأة لأنه جعلها القضية المحورية لفكره الإصلاحي بينما جعلها الآخرون السابقون عليه مجرد جزء من فكرهم [1]. وفى رأيى أن محاولة إثبات ريادة قاسم أمين لا ينبغي أن تكون عن طريق إثبات أنه كان أول من طرح هذا الموضوع أو هذه المسألة كقضية وأول من جعل منها مشكلة اجتماعية تستدعى الحل وأول من اجتهد فى حلها مستخدما المناهج العملية الاجتماعية الحديثة.

لابد منطقيا أن تكون القضايا التى عالجها قاسم أمين قد عولجت من قبل، وأقول منطقيا لأن النضج والإحاطة اللذين اتسمت بهما معالجة قاسم أمين يدلان على أنها لم تأت من فراغ إنما أتت فضلا عن جهد صاحبها بالطبع نتيجة لنقاش متصل بين المفكرين، نقاش شارك فيه الرأى العام بل نتيجة لا تجاه وليد فى المجتمع لتحرير المرأة ولكتابات سابقة. وقاسم أمين يعترف بنفسه بذلك فى «تحرير المرأة» وفى «المرأة الجديدة» إنما الجديد الذى أتى به قاسم أمين كان فى استيعابه لكل هذه الجهود السابقة ولصياغتها فى بنية فكرية جديدة تماما. ريادة قاسم أمين فى رأيى تمثلت فى الطرح الجديد للمشكلة القديمة، هذا الطرح العظيم الذى مكنه من تبين الحل الذى يتمثل فى ضرورة تعليم المرأة وتربيتها ومشاركتها في الحياة الاجتماعية.

---

(١) محمد عمارة : ص ١٣ – ١٤.

وأحسبنى لا أبالغ إذا قلت إن كل الكتابات التى تناولت ذات المشكلة، سواء أكانت معاصرة لقاسم أمين أم كانت لاحقة له، وسواء أكانت مؤيدة لرايه أم معارضة له، لم تبلغ قيمة معالجته هو، فيكفى أن نطالع «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» و «تربية المرأة والحجاب» لمحمد طلعت حرب اللذين رد بهما على «تحرير المرأة» لنتبين مدى عجز صاحبهما عن إدراك أبعاد محاولة قاسم أمين وعن إدراك المنهج الذى اتبعه فيهما. أما الدليل الحاسم على صدق قولى فهو دراسة منصور باشا فهمى «وضع المرأة فى تراث الإسلام ونهضته دراسة تاريخية واجتماعية»[1] التى أعدها على يدى ليفى برول عالم الاجتماع الفرنسى الشهير، إن هذه الدراسة لم تتجاوز أبدا معالجة قاسم أمين بل على العكس عجزت عن سبر غور المشكلة لأن صاحبها التزم بمنهج علمى تاريخى غربى صارم تجاه وضع المرأة المسلمة فضاعت منه فرصة ثمنية وهى دراسة المشكلة من أجل المساهمة فى حلها كما فعل من قبله قاسم أمين. لقد اضطر فى كثير من الأحوال إلى التضحية بمقتضيات العقيدة من أجل إثبات ما اعتقد أنه الحقيقة العملية، وهو ما يشعر القارئ بأنه يقرأ لباحث غربى لا لباحث مسلم ينتمى للحضارة الإسلامية.

---

(1) Mansaur Fahmy: lacoasition de la Femme dams la tradition: et L'évalution de l'islamisme-étude historique et: idéologique Paris, Félix Alcan 1913.

قدم منصور باشا فهمي دراسة عن المرأة المسلمة ترضى مزاج الغربي ولكنها لا تفيد بشيء والدليل على ذلك أن أحدا لم يفكر في ترجمة هذه الدراسة للاستفادة منها في شرقنا العربي. إن الدراسات الاجتماعية ليست دراسات تجريدية إنما هي دراسات براجماتية موجهة لتحقيق فائدة المجتمع الذي تنتمي إليه هذه الظاهرة.

ويظل قاسم أمين هو الوحيد الذي قدم لنا دراسة اجتماعية لقضية المرأة لها جانبها التطبيقي العظيم بدلاً من أن يقدم لنا دراسة أكاديمية تزين المكتبات وينال بها صاحبها درجة علمية.

ونجحت محاولة قاسم أمين فلم تمض سنوات قليلة حتى قادت السيدة هدى هانم شعراوي الحركة النسائية تعاونها سيدات مصريات فاضلات من كل الطبقات. ولم تكتف بعض السيدات بالعمل الاجتماعي بل كانت لهن اسهاماتهن الفكرية التي تتناول مشكلة المرأة وحلها، ومنهن ملك حفني ناصف باحثة البادية التي نشرت مجموعة من المقالات التي جمعت وظهرت عام ١٩١٠، ونظيرة زين الدين صاحبة «السفور والحجاب» ١٩٢٨، ومنيرة ثابت في «ثورة في البرج العاجي». وأسست جريدة تبنت قضية المرأة هي «المرأة الجديدة» وتكونت جمعية

من النساء هى «جمعية الاتحاد النسائى المصرية» [1]. وعمل التطور عمله وسار التاريخ إلى الإمام بالرغم من كل العراقيل وتحررت المرأة المسلمة ولم تعد فى حاجة إلى إثبات مساواتها بالرجل ولا فى حاجة للمطالبة بحقوقها لأنها حصلت عليها.

زينب محمود الخضيرى

(1) Aziza Hussein: The role of women in Social reform-in the Middle East Journal-Volume Vii-1953, P. 440-450
Ilse Lichtenstadler. The "New Women" in modern Egypt-Observations and Impressions, in The Muslim world, volume 38 n-03, July 1948,P. 163-171.



المرأة الجديدة

تأليف

قاسم أمين

المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٠

الى صديقي سعد زغلول

فيك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفتكر وارادةً تعمل

انت الذي مثلت اليّ المودة في اكمل اشكالها ٠

فادركتُ ان الحياة ليست كلها شقاء وان فيها ساعات

حلوة لمن يعرف قيمتها

من هذا امكنني ان احكم ان هذه المودة تمنح

ساعات احلى اذا كانت بين رجل وزوجته

ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لاعلنه

لابناء وطني رجالاً ونساء

قاسم امين

١٥ اغسطس سنة ١٩٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المرأة الجديدة هي ثمرة من ثمرات التمدن الحديث بدأ ظهورها في الغرب على اثر الاكتشافات العلمية التي خلصت العقل الانساني من سلطة الاوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ورسمت له الطريق التي يجب ان يسلكها . ذلك حيث اخذ العلم يبحث في كل شيء وينتقد كل رأي ولا يسلم بمقال الا اذا قام الدليل على ما فيه من المنفعة للعامة . وانتهى به السعي الى ان ابطل سلطة رجال الكنيسة والغى امتيازات الاشراف ووضع دستوراً للملوك والحكام واعتق الجنس الاسود

من الرق ثم اكمل عمله بان نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهنّ بأن يساوينهم في شيء منها

كان الاوروبيون يرون رأينا اليوم في النساء وان امرهنّ مقصور على النقص في الدين والعقل وانهنّ لسنَ الا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان وكانوا يقولون ان «ذات الشعر الطويل والفكر القصير» لم تخلق الا لخدمة الرجل وكان علماءهم وفلاسفتهم وشعراءهم وقسسهم يرون من العبث تعليمها وتربيتها ويسخرون بالمرأة التي تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال

فلما انكشفت عنهم غشاوة الجهل ودخل حال المرأة تحت انتقاد الباحثين اكتشفوا انهم هم انفسهم منشأ انحطاطها وسبب فسادها وعرفوا ان طبيعتها العقلية والادبية قابلة للترقي كطبيعة الرجل وشعروا انها انسان مثلهم لها الحق في ان تتمتع بحريتها وتستخدم قواها

وملكاتها وان من الخطأ حرمانها من الوسائل التي تمكنها من الانتفاع منها

ومن ذلك الحين دخلت المرأة الغربية في طور جديد واخذت في تثقيف عقلها وتهذيب اخلاقها شيئاً فشيئاً ونالت حقوقها واحداً بعد الآخر واشتركت مع الرجال في شؤون الحياة البشرية وشاركتهم في طلب العلم في المدرسة وسماع الوعظ في الكنيسة وجالستهم في منتديات الادب وحضرت في الجمعيات العلمية وساحت في البلاد . ولم يمضِ على ذلك زمن طويل حتى اختفت من عالم الوجود تلك — الانثى — تلك الذات البهيمية التي كانت مغمورة بالزينة متسربلة بالازياء منغمسة في اللهو وظهر مكانها امرأة جديدة هي المرأة شقيقة الرجل وشريكة الزوج ومربية الاولاد ومهذبة النوع !

هذا التحويل هو كل ما نقصد

غاية ما نسعى اليهِ هو ان تصل المرأة المصرية الى هذا المقام الرفيع وان تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال

اللائق بصفتها فتمنح نصيبها من الرقي في العقل والادب ومن سعادة الحال في المعيشة وتحسن استعمال ما لها من النفوذ في البيت

اذا تم ذلك فنحن على يقين لا يزعزعه ادنى شك من ان هذه الحركة الصغيرة تكون اكبر حادثة في تاريخ مصر

اذا كان هذا هو اعتقادنا فهل يصح ان يصدنا عن المثابرة في السعي الى تحقيق آمالنا ان الجمهور من العامة لم يلتفت اليه او ان بعض الكتاب اظهروا السخط عليه ما بين منتقدٍ لم يتفق رأيه مع رأينا وساخر يقضي عمرهُ في السفاسف ومفتر ينكر علينا حسن نيتنا ؟

نحن لا نكتب طمعاً في ان ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين اذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه الجلي معناه لا يفهمونه الا اذا جاء محرفاً عن وضعه منصرفاً عن قصده برأي شيخ هو اجهل الناس بدينه ولا يحبون الوطن الا اذا تمثل لاعينهم في صور قبيحة

واخلاق رثة وعادات سخيفة وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع امانينا في المستقبل فهي التي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسئلة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث

لم نرَ هذه الدفعة حاجة الى التكلم على الحجاب من الجهة الدينية فان ما اوردناه في كتاب تحرير المرأة من النصوص القرآنية صريح في اباحة كشف الوجه واليدين ومعاملة النساء للرجال . وقد وافقنا على ذلك كثير من علماء المسلمين الذين نقلنا آراءهم . اما ان فريقاً آخر من الفقهاء استحسن التشديد في الحجاب فهذا رأي لا يلزمنا الدين باتباعه

واذا كان في هذه المسئلة قولان فمن الصواب ان يرجح القول الموافق للحرية الانسانية وللمصلحة العامة

وقد كتب صاحب مجلة المنار كلمة في الحجاب نوردها هنا تأييداً لرأينا . قال :

« واما الامر الثالث وهو حكم الشرع في هذه »
« المكالمة فالمعروف ان الشرع انما حرم الخلوة بالمرأة »
« الاجنبية . واخبار الصدر الاول مستفيضة بمكالمة »
« النساء للرجال وحديثهنّ معهم في الملأ دون الخلوة . »
« وكفاك ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم — وهنّ »
« اللاتي امرنَ بالمبالغة في الحجاب — كنّ يحدثنَ »
« الرجال حتى ان السيدة عائشة كانت قائدة عسكر »
« ومدبرة له في وقعة الجمل المعروفة وما اخال ان مكابراً »
« يقول انها لم تكن تكلم احداً منهم الا ذا محرم »

هذا هو رأي رجل عرف الناس جميعهم مكانه من الدين . ولو كان اهل الازهر يشتغلون بفهم مقاصد دينهم بدلاً عن اشتغالهم بالالفاظ والتراكيب النحوية واللغوية لما اختلفوا معنا في شيء مما قلناه

ومن العجيب ان الجرائد واصحاب الافكار يرمون كل يوم علماء الدين الاسلامي بانهم السبب في انحطاط وتأخر الامم الاسلامية عن سواها في المدنية ويصفونهم

بالتساهل في فهم الدين وعدم مراعاة احكامه ثم اذا تحركت غيرة لعرض رأي يظن ان فيه خيراً للامة تحولت انظارهم الى هؤلاء العلماء واستفتوهم عن رأيهم فيهِ ٠ وغاب عنهم ان الذين يحاربون الاصلاح ولا يفرضون لتعلمهم العلوم العصرية فائدة تعود عليهم في تهذيب عقل او استكمال ادب او تقويم عمل ولم يقبلوا تدريس علم الجغرافيا والتاريخ الا رغم انفهم ليس لهم مقام لا من العلم ولا من الدين يسمح لهم بابداء رأي في شأن من شؤون الامة فضلاً عن مسئلة من اهم مسائل الاجتماع البشري

والمطلع على الشريعة الاسلامية يعلم ان تحرير المرأة هو من انفس الاصول التي يحق لها ان تفتخر به على سواها لانها منحت المرأة من اثني عشر قرن مضت الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية الا في هذا القرن وبعض القرن الذي سبق٠ حتى انها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهي الآن مشتغلة بالمطالبة بها

فاذا كانت شريعتنا قرّرت للمرأة كفائة ذاتية في

تدبير ثروتها والتصرف فيها وحثت على تعليمها وتهذيبها ولم تحجر عليها الاحتراف باي صنعة والاشتغال باي عمل وبالغت في المساواة بينها وبين الرجل الى حد ان اباحت لها ان تكون وصية على الرجل وان تتولى وظيفة الافتاء والقضاء : اي وظيفة الحكم بين الناس بالعدل . وقد ولى عمر رضي الله عنه على اسواق المدينة نساء مع وجود الرجال من الصحابة وغيرهم مع ان القوانين الفرنساوية لم تمنح النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة الا في العام الماضي . اذا كانت شريعتنا تحابي عن المرأة الى هذا الحد وتمنحها هذه لدرجة من الحرية فهل يجدر بنا في هذا العصر ان نغفل عن مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التي تأهل المرأة الى استعمال هذه الحقوق النفيسة ونضيع وقتنا في مناقشات نظرية لا تنتج الا تعويقنا عن التقدم في طريق اصلاح احوالنا :

لا اظن ان ذلك يليق بنا وأرجو ان كثيراً من القراء يرون مثل رأينا

(١)

المرأة في حكم التاريخ

لا يمكن معرفة حال المرأة اليوم الاّ بعد معرفة حالها في الماضي . تلك هي قاعدة البحث في المسائل الاجتماعية فاننا لا يمكننا ان نقف على حقيقة حالنا في أي شأن من شؤوننا الاّ بعد استقراء الحوادث الماضية والالمام بالادوار التي تقلبت فيها وبعبارة أُخرى يلزم ان نعرف من اي نقطة ابتدأنا حتى نعلم الى اي نقطة نصل

ذكر شيخ المؤرخين هيرودوت ان علاقات الرجل مع المرأة كانت متروكة الى الصدفة ولا تفترق عما يشاهد بين الانعام وكان الشأن اذا ولدت المرأة ولداً ان يجتمع القوم متى وصل الولد الى سن البلوغ وينسبوه الى اشبه الناس به . وهذه العادة كانت معروفة ايضاً عند القبائل الجرمانية وعند العرب في الجاهلية وقد جاءت روايات

السواح المعاصرين لنا مؤيدة لما جاء به التاريخ فان جميع السواح الذين طافوا بلاد تاهتي وجزائر مركيز وغيرها من اقاليم استراليا وزيلاندة الجديدة وبعض بلاد الهند وافريقيا ذكروا ان الزواج غير معروف في تلك البلاد

ولا خلاف في ان المرأة التي هذه حالها تعيش مستقلة تعول نفسها بنفسها مساوية للرجل في جميع الاعمال بل لها من المزية عليه ان نسب الاولاد يتعلق في الغالب بها وحدها فالمرأة في هذا الدور الاول هي ذات الشأن في الهيئة الاجتماعية وربما كانت تشترك في الدفاع عن قبيلتها مع الرجل ويدل على ذلك ذكر وقائع الفارسات في التواريخ القديمة ووجود عادة منتشرة الى الآن في بعض البلاد تقضي بتجنيد النساء كما تجند الرجال ومن هذا القبيل ان ملك سيام له عدد من النساء عهد اليهن حراسته وكان لملك الداهومية بهانزن الذي استولى الفرنساويون على بلاده من بضع سنين خمسمائة جندي من الرجال وخمسمائة من النساء

ولما ودع الانسان بداوته واتخذ له وطناً قاراً واشتغل بالزراعة وجد نظام البيت ومن اهم ما ساعد على تشكيل العائلة انه كان لكل عائلة معبود خاص بها تختاره من بين اسلافها كما كان جارياً عند اليونان والرومان والهنود والجرمانيين وكما هو جارٍ الى الآن عند الامم المتوحشة وله بقية في بلاد الصين وكانت العائلة تقدم القربان الى آلهتها فكان هذا باعثاً للرجل على استبقاء ذرية تقوم بتأدية الخدمات الدينية

وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً لزوجته وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء وهذا امرٌ يعلمهُ كلُّ مطلعٍ على القانون الروماني وذكرهُ المؤرخون ورواه السواح المعاصرون لنا . يشتري الرجل زوجته من ابيها فتنتقل اليه جميع حقوق الاب عليها ويجوز له ان يتصرف فيها بالبيع

لشخص آخر فاذا مات انتقلت مع تركتهِ الى ورثتهِ من اولادها الذكور او غيرهم

ومما يتبع هذه الحال ان المرأة لا تملك شيئاً لنفسها ولا ترث وان يتزوج الرجل بعدة نساء لان الوحدة في الزواج تفرض المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات . ثم خفت صولة الرجل على المرأة نوعاً بتأثير الحكومة فردت اليها حق الملك كله او بعضه وحق الارث تاماً او ناقصاً على حسب الشرائع ولكن حماية الحكومة للمرأة لم تبلغ في اي بلد من البلاد الى حدّ انها سوّت بين الرجل والمرأة في الحقوق فالمرأة في الهند كانت مجرَّدة عن شخصيتها الشرعية وعند اليونان كانت النساء مكلفات بان يعشنَ في الحجاب التام ولا يخرجنَ من بيوتهنَّ الاّ عند الضرورة وعند الرومان كانت المرأة في حكم القاصر وفي مبدإ تاريخ اوروبا عند ما كانت خاضعة الى سلطة الكنيسة والقانون الروماني كانت في اسوأ حال حتى ان بعض رجال الدين انكروا ان لها روحاً

خالدة وعرضت هذه المسئلة على المجمع الذي انعقـد في ماكون في سنة ٥٨٦ فقرر بعد بحث طويل ومناقشة حادة ان المرأة انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل وكان من الضروري ان تعيش تحت قيامة رجل وهو ابوها قبل زواجها ثم زوجها بعد الزواج واحد ابنائها اذا مات الزوج او احد اقاربها من الذكور او اقارب زوجها ان لم يكن لها اولاد ولا يجوز لها في اي حال ان تتصرف بنفسها وكانت غير اهل للشهادة في العقود ولا للوصاية على اولادها القصر ولا لان تكون حكماً او اهل خبرة وشوهد في بعض ولايات سويسره ان شهادة امرأتين تساوي شهادة رجل واحد ولا تزال آثار هذه الاحكام باقية الى الآن في كثير من ممالك اوروبا ذلك لان مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها ان تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها

هذا الضرب من الحكومة الاسبدادية هو اول

حكومة سياسية ظهرت في العالم وقد اضمحل ثم زال بعد ان اقام اجيالاً في البلاد الغربية وحل محله النظام الدستوري المؤسس على ان الحاكم ليس لهُ حق على الاشخاص ولا على الاموال الا ما تفرضه القوانين

ولكنهُ لا يزال سائداً في الشرق عامة حيث نرى سكان الصين والهند وبلاد العرب والترك والعجم خاضعين الى سلطة حكومة لم تتغير عما كانت عليه من آلاف من السنين

وليس هنا محل البحث عن الاسباب التي وقفت بهذه الجمعيات الشرقية عند حد العجز عن التخلص من الاستبداد المزمن الذي حرمها الترقي في المدنية وحصر حركاتها في مدار واحد بدون ان تنتقل من مكانها وانما يهمنا هنا ان نثبت امراً يتعلق بموضوعنا وهو وجود التلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وافقدها وجدان الحرية وبالعكس في

البلاد التي تتمتع فيها النساء بحريتهنَّ الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً

وان لسائل ان يسأل اي الحالتين اثرت في الاخرى نقول انهما متفاعلتان وان لكل منهما تأثيراً في مقابلتها وبعبارة اخرى ان شكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية :

انظر الى البلاد الشرقية تجد ان المرأة في رق الرجل والرجل في رق الحاكم فهو ظالم في بيته مظلوم اذا خرج منه ثم انظر الى البلاد الاوروباوية تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل وان كنَّ لم يصلنَ الى الآن الى مستوى ما اعد لهنَّ ثم انتقل الى بلاد امريكا تجد الرجال مستقلين في معيشتهم الخاصة استقلالاً تاماً وان سلطة الحكومة وتداخلها في شؤون الافراد يكاد يكون معدوماً ولهذا زادت حرية النساء فيها عما هي في اوروبا بكثير حيث

تساوى المرأة والرجل من البلاد الاميركية في جميع الحقوق الشخصية وفي بعض تلك الولايات تمت المساواة بينهما ايضاً في الحقوق السياسية

ففي ولاية يومنج نالت النساء حق الانتخابات السياسية من سنة ١٨٦٩ واني انقل هنا رأي رئيس حكومتها المسيو شامبل الذي جاهر بهِ في خطبة القاها بعد سنتين من العمل بهذا القانون قال :

« مضت سنتان والنساء بحكم القانون يستعملنَ »
« حقوقهنَّ السياسية فينتخبنَ نواب الامة وينبنَ »
« بانفسهنَّ عنها ويجلسنَ « في مراكز القضاء ويؤدينَ »
« ما دون ذلك من الوظائف العمومية ومن العدل ان »
« نعترف ان النساء قد قمنَ بهذه الواجبات الجديدة »
« على وجه من الرزانة وحصافة الرأي وسلامة الذوق »
« لا ينقص عما يقوم به الرجال . وهذه التجربة بالنسبة »
« لقصر مدتها لا تصلح ان تكون دليلاً مقنعاً لاثبات »
« استعداد المرأة في القيام بمهام الحكومة لكنها تحمل »

« على حسن الظن بفطرة المرأة . وما دام الحال على »
« هذا المنوال فلهنّ الحق في الاستمرار

وبعد تجربة اخرى مدة اربع سنين قال الرئيس المذكور :

« مضى اليوم ست سنين ونحن نجرب النساء في »
« استعمال حقوقهنّ السياسية وقد اعلنت رأيي في »
« جلسة سابقة وصرحت بالفوائد التي اظهرتها التجربة »
« والآن اقول ان ما شاهدته في مدة هذه الاربع »
« سنين اقنعني اقناعاً تاماً باننا اصبنا في تخويل النساء »
« حق الانتخاب وان مساواة المرأة للرجل في الحقوق »
« السياسية قد نجحت بالتجربة نجاحاً لا يماري فيهِ احد »

وبعد ذلك بسنتين تعين رئيس آخر للحكومة وهو الجنرال طاير وقد انتخب من بين اعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة فخطب قائلاً :

« لقد مضى ثمان سنين والنساء يتمتعنَ في ارضنا »
« بالحقوق السياسية وكل يوم يمرّ يزيد الاهالي ثقة »

« بالنساء وفي رأيي ان هذه نتيجة حسنة لانها موافقة »
« لمصالح امتنا »

ثم بعد ذلك بخمس سنين في ١٢ يناير سنة ٨٢ خطب رئيس آخر يدعى جون هويت بما هو آت :

« ان مملكة يومنج هي المكان الوحيد الذي تتمتع فيه »
« النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا »
« فرق بين الصنفين وهذا الإقدام من امتنا التي »
« ارشدها حب الحق والعدل الى إصلاح خطأ طال »
« عليه الزمن قد وجه انظار العالم الينا . ولئن زعم »
« اخصامنا اننا لا نزال في دور التجربة فكاننا نعلم ان »
« هذا الدور قد انقضى بالنسبة الينا . واني اصرّح هنا »
« بأن اشتراك النساء في اعمال الحكومة مع الرجال »
« ترتب عليه ان القوانين عندنا اصبحت احسن مما »
« كانت عليه وان عدد الموظفين الاكفاء وصل الى »
« درجة لم تعهد لها من قبل وان حالتنا الاجتماعية ارتقت »
« كثيراً وهي الآن تفوق ما عليه سائر البلاد الاخرى »

« وان جميع المصائب التي كنا نهدد بحاولها مثل فقد »
« النسآء رقة الطبع واضطراب النظام في معيشتنا »
« المنزلية لم نرَ لها اثراً الآ في مخيلات خصومنا »

« ان السواد الاعظم من نسائنا قدرنَ حقوقهنَّ »
« الجديدة حق قدرها واعتبرنَ القيام بها واجباً وطنياً »
« وبالجملة فاني اقول ان تجربة اثنتي عشرة سنة مع »
« النجاح الباهر قد مكّنت في عقولنا ونفوسنا ان »
« مساواة المرأة للرجل مما لا يرتاب فيه »

« كل هذه المقدمات تنساق بنا الى طلب الكمال »
« في حالتنا الاجتماعية حتى نجعل ولاية يومنج نجماً »
« يهتدي به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالانسان »
« الى ذروة الحرية »

وليس عليَّ ان اضيف على آرآء هؤلاء الرجال العظام الآ ان قانون سنة ٦٩ لا يزال معمولاً بهِ الى الآن في يومنج وان ثلاث ولايات اميركانية قد حذت حذو تلك الولاية وخولت النساء الحقوق السياسية وهي ولاية آوته

وكولورادو وايداهو

اما في باقي ولايات اميركا فالمرأة لم تنل الى الآن حقوقها السياسية ولكن كل مطلع على حركة الرأي العام فيها لا يشك انها ستنال هذه الحقوق في زمن قريب جدًّا واليك رأي رجلين من اكبر رجالها السياسيين

قال سمپلون العضو في مجلس شيوخ الولايات المتحدة : « اني اعتقد ان انتشار الفسق في مدننا الكبيرة لا يمكن ان يضيق نطاقه الا اذا منحت النساء حق الانتخاب »

ومن رأي جيابير هاقيه وهو ايضاً من اعضاء مجلس الشيوخ « ان فساد الاخلاق السياسية لا يصلحه الا اشتراك النساء في الانتخابات لاننا نعلم ان الخمارة هي مجلس البلدية ومركز الانتخابات وما ذلك الا لأن الخمارة هي المحل الوحيد الذي لا تدخل فيه المرأة »

لعل القارئ يستغرب كيف ان الرجال في امريكا يرون ان لا سبيل الى محاربة الفسق وفساد الاخلاق الا بمعونة النساء . هذا امر يحتاج الى البيان ولذلك انقل

هنا رأي القاضي الامريكاني جون لينجمان وقد نشر في سنة ١٨٨٢ في اهمّ جرائد اوروبا قال :

« كان الرجال قبل اشتراك النساء في الوظائف »
« العمومية اذا اجتمعوا في مكان لا يخلو جيب واحد »
« منهم من مسدس فاذا قام نزاع خفيف بين بعض »
« الحاضرين لم يكن ينتهي عادةً الا بقتل او جرح »
« وكان المحلفون يحكمون في الغالب ببراءة الجانين فلما »
« اشترك النساء في الوظائف القضائية مع الرجال نتج »
« عن ذلك معاقبة المذنبين وكذلك كان المحلفون لا »
« يهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور فتغير »
« الحال الآن — وقد ترتب على حضور النساء في »
« الجلسات اننا نرى الآن قاعاتها متحلية من النظام »
« والادب والوقار باكثر مما كان يعرف فيها من قبل
«. ولم يترتب على اشتغال النساء بالوظائف العمومية »
« انهنَّ اهملنَ ما يجب عليهنَّ في منازلهنَّ ولم يصل الى »
« علمي ان زوجاً اشتكى من زوجته بسبب اشتغالها »

« عن مصالح منزلها بالمصالح العامة ولم ارَ شقاقاً بين »
« زوجين بسبب اختلاف ارآئهما السياسية ولم اسمع »
« به على اني اعرف عدة عائلات ينتمي فيها الزوج الى »
« حزب وزوجته الى حزب آخر »

على ان المرأة الامريكانية منحت في جميع الولايات المتحدة حظاً عظيماً من الحقوق العمومية فلها ان تحترف بحرفة المحاماة وتترافع امام جميع المحاكم ويوجد قضاة من النساء في ولاية كانساس ويومنج وكولومبيه وشيلي وزيلنده وغيرها وعين بعض افرادهنَّ في وظيفة نائب عمومي ويوجد عدد عظيم منهنَّ في نظارات الخارجية والداخلية والحربية

اما عدد النساء المشتغلات بتحرير العقود الرسمية والنساء القسيسات والمهندسات ومديرات الجرائد والمستخدمات في الرصدخانات والبوستة والتلغراف فلا يكاد يحصى

وتشغل النساء اغلب الوظائف في ادارة المعارف فقد

بلغ عددهن خمسة وتسعين في المائة في المدارس الابتدائية

قال بول بورجيه الكاتب الفرنساوي الشهير في كتاب حديث ألفه عقب زيارته امريكا في وصف حال نسائها ما يأتي

« اذا زرت مدرسة عمومية وجدت البنات يدرسن
« مع الصبيان في مكان واحد والاستاذ الذي يلقي »
« الدرس رجلاً او امرأة بلا فرق واذا دخلت في معمل »
« علمي وجدت بناتاً محنيات الرؤوس على آلة الميكرسكوب »
« وبجانبهن شبان من طلبة العلم والكل مشتغل بفحص »
« مسئلة من علم التشريح ويزورك احد مكاتبي الجرائد »
« من غير ان يسمي نفسه فتجد انه امرأة وتروم »
« استدعاء احد الاطباء المشهورين فتجد عدد الاطباء »
« من النساء مساوياً لعدد الاطباء من الرجال وان لم »
« يكن مساوياً في بعض الجهات فهو من الكثرة »
« بحيث لا يعد التطبب منهن من قبيل النادر »

ويكفي لبيان ارتقاء شأن المرأة الامريكانية ان نقول

انه تبين من الاحصائية التي عملت في سنة ١٨٨٠ ان النساء المحترفات بالعلوم والادبيات فقط بلغ عددهنَّ خمسة وسبعين في المائة و ٦٣ في المائة في التجارة و ٦٢ في المائة في الصناعة

فاذا انتقلنا من اميركا الى انكلترا وهي اقرب الامم اليها وجدنا ان اشتغال النساء بالعلوم والصنائع لا يقل تقريباً عما يشاهد في اميركا فقد نتج من احصائيتها الاخيرة ان مليوناً منهنَّ يشتغلنَ بالعلوم والادبيات وثلاثة مليون بالتجارة والصناعة

وللنساء الانكليزيات حق الانتخاب في المجالس البلدية وفي مجتمعات المعارف والجمعيات الخيرية ولم يفت النساء التمتع بهذه المزايا حتى في المستعمرات الانكليزية كالكاب وكندا واستراليا

اما مسئلة منحهنَّ الحقوق السياسية فهي لا تزال في دور التحضير واول طلب تقدم من النساء الانكليزيات الى مجلس النواب كان في سنة ١٨٦٦ وامضى عليه ستمائة

الف امرأة واول مشروع تقدم الى مجلس النواب لتخويلهن الحقوق السياسية كان في سنة ٦٧ وكان من حسن حظه ان العلاّمة استوارت ميل هو الذي اخذ على نفسه المدافعة عنه امام المجلس فاكتسب في الحال ثمانين صوتاً من النواب اذكر من بينهم ديزرائيلي وغلادستون وفي سنة ٧٢ تقدم المشروع ثانياً ونال ١٥٩ صوتاً وفي سنة ٧٣ نال ١٧٢ صوتاً وما زال يتقدم من حين الى حين ويكسب اصواتاً جديدة حتى توفرت له الاغلبية في سنة ٩٧ فاقرّ عليه مجلس النواب ولم يبقَ لنفاذهِ الاّ تصديق مجلس الاعيان

وفي فرانسا لم تصل حركة الافكار في شأن النساء الى هذا الحد فعدد المشتغلين من النساء بممارسة العلوم قليل وعدد الموظفين في المصالح الاميرية يكاد يكون محصوراً في مصلحة البوستة والتلغراف والتلفون والحرفة التي اتجهت اليها على الخصوص نساء فرانسا هي التجارة وقد خاب ظن فيكتور هيجو اكبر شعراء العصر في فرانسا الذي قال

« ان القرن الثامن عشر قرّر حقوق الرجال وسيقرّر القرن التاسع عشر حقوق النساء » حيث قد انتهى القرن التاسع عشر ولم يتم شيء كبير من الاصلاحات التي يطالب بها كثير من رجال فرانسا غير انه في هذه السنين العشر الاخيرة حصل تقدم محسوس في حركة الافكار الفرنساوية انتهى بنيل النساء حق الانتخاب في المجالس التجارية وفي العام الماضي صدر القانون الذي يخوّل النساء حق الاحتراف بصنعة المحاماة

وحال النساء في الممالك الاوروباوية الاخرى لا يختلف الا قليلاً عن حال النساء في فرانسا

اما مملكة روسيا فمركزها الجغرافي قضى عليها بان تتأثر بالعادات الشرقية ولهذا فقد عاش نساؤها من اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات كنساء الشرق مسجونات في البيوت محرومات من التربية والتعليم وليس لهنّ من الحقوق الاّ ما تسمح به رحمة ازواجهنّ واوليائهنّ ولم تبطل هذه العادة من البلاد الروسية الاّ

في سنة ١٧٢٥ حيث صدر امر عالي من بطرس الاكبر بالغاء الحجاب مرة واحدة ثم تولت بعده الامبراطورة كاترين فتممت عمله واشتغلت من سنة ١٧٦٢ الى ١٧٩٧ بتأسيس المدارس للبنات ونشرت بينهن التربية العقلية والادبية

ولكن لما تولى الملك الكسندر الاول وكان يبغض الحرية وقفت هذه الحركة حتى تولى الملك الكسندر الثاني وكان ميالاً الى ترقية بلاده محباً لتقدمها فابطل استعباد الرجال (السرفاج) وانشأ مدارس كثيرة للبنات للتعليم الابتدائي والثانوي كنَّ يتعلمنَ فيها العلوم التي يتعلمها الذكور واول مدرسة انشئت على هذا النمط كانت في سنة ١٨٥٧ ولكن لم يمض على هذه النهضة العظيمة زمن كبير حتى رأت الحكومة الروسية ان تقدم النساء في المعارف له اثر كبير في حالة الامة السياسية وان حزب المعارضين للحكومة اخذ ينمو فاقفلت في سنة ١٨٦٢ ابواب المدارس العالية في وجوه الرجال والنساء ولكن

النساء لم يقبلنَ ان يرتكسن في الجهل بعد ان ذقن طعم الحرية والعلم فرحل الكثير منهنَّ عن وطنه طلباً للمعارف واخذن يهاجرنَ الى فرنسا وسويسرا والمانيا لتحصيلها وطفقنَ في مهاجرهنَّ يطعنَّ في الحكومة وينشرنَ افكارهنَّ في الكتب والجرائد ويشتركن في المؤامرات مع الرجال فكانت عاقبة اقفال المدارس اشتداد ثورة الافكار عما كانت عليه من قبل ففطنت الحكومة الى هذا الامر وعرفت انها اخطأت فقرَّرت في سنة ١٨٨٩ اعادة تلك المدارس وقد زاد عددها من ذلك العهد الى الى الآن زيادة ظاهرة

هذا هو مجمل تاريخ حياة المرأة في العالم نلخصهُ في كلمتين عاشت المرأة حرة في العصور الاولى حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشيء من الحق ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها

بان لا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوى المرأة والرجل في جميع الحقوق او على الاقل في معظمها . اربعة احوال يقابلها اربعة ادوار من تاريخ التمدن في العالم

فالمرأة المصرية هي اليوم في الدور الثالث من حياتها التاريخية بمعنى انها في نظر الشرع انسانٌ حرٌّ له حقوق وعليه واجبات ولكنها في نظر رئيس العائلة وفي معاملته لها ليست بحرَّة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية وهذه الحال التي عليها المرأة اليوم هي من توابع الاستبداد السياسي الذي كان يخضعنا ونخضع له

ومع ان الاستبداد السياسي اصبح الآن في حالة النزع واشرف على الفوات بحيث لا ترجى له عودة لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم

وما سبب ذلك الاَّ ان قوانيننا السياسية قد ارتقت قبل ان نرتقي وسبقتنا الى ما لم نصل اليه بعد فهي تقرّر

ان كل فرد منا له ان يتمتع بحريته وحقوقه الشرعية لا فرق في ذلك بين الذكر والانثى ونحن معاشر الرجال لم يزل راسخاً في طبعنا حب الاستئثار بمزايا الحرية وعدم احترام حقوق النساء

وهذا يدل على ان سلطان الاخلاق القديمة لا يزال نافذاً في نفوسنا وله اثرٌ ظاهر في اعمالنا فقوانيننا وضعت لامة حرَّة واخلاقنا لا تزال اخلاق امةٍ مسترقة لهذا نرى رجالاً وردوا موارد العلم وتنقلوا من مدرسة الى مدرسة ومن درجة الى درجة حتى فازوا باعلى لقب علمي وفقهاء يعلمون الحقوق وشعراء من نوابغ العصر على ما يقول العارفون بفنهم وكتاباً نصبوا انفسهم لافادة الناس بجرائد تلقب بالعلمية او الادبية او الفنية او ما شئت من هذه الالقاب وخطباء مشهورين بحب الحرية والاستقلال رأينا جميع من ذكرنا عندما سمعوا القول بان للمرأة حقاً مهضوماً وانها انسان محروم اخذوا يتساءلون هل يسوغ لها ان تخرج من سجنها او يرفع عنها غطاء من جهلها وبعد

طول التساؤل رجعوا الى ما هو مركوز في طباعهم فانكروا عليها هذا الحق وحكموا عليها بان تبقى في ظلمات الجهل وفي السجن المؤبد ! !

فهل كان ذلك لان المسئلة عويصة تحتاج الى العناء في حلها وتقبل اختلاف الآراء فيها ؛ كلاّ وانما نحن نتصوّر الحرية ولا نشعر في الحقيقة بحبها ونعرف حق الغير ولا نجد من انفسنا احتراماً له . نحن في دور التمرين على العمل بالاخلاق الحرّة ونحتاج الى زمن طويل لترسخ في نفوسنا

اما الاوروباويون فانهم يقدرون الحرية حق قدرها ويحبونها ويحترمونها في غيرهم كما يقدرونها ويحبونها ويحترمونها في انفسهم

وهذا شأن من له احساس حقيقي بمزية فضيلة من الفضائل فانما الفاضل من يجل الفضيلة اينما كان مظهرها

قال كوندورسيه الاصولي الشهير في هذا المعنى :

« اما ان لا يكون حق حقيقي لاحد من الناس واما ان يكون لكل فرد حق مساو لحق الآخر ومن جرّد غيره

من حقه مهما كان دينه او لونه او صنفه فقد داس بقدميه حق نفسه . »

لهذا يشتغل محبو الترقي في اوروبا وامريكا لتحسين حال المرأة وايصالها من الكمال فوق ما وصلت اليه الآن وآلوا على انفسهم ان يجاهدوا في هذا السبيل حتى يبلغ النساء مرتبة الرجال فيساوينهم في جميع الحقوق الانسانية

ولا انكر ان عدداً غير قليل من الغربيين لم يزل يجادل في صحة اصل المساواة التامة بين الصنفين

فهناك مذهبان يتزاحمان احدهما يكتفي بما وصلت اليه المرأة الغربية من الحرية والحقوق والثاني يطلب الازدياد فيها حتى لا يبقى فرق بين الصنفين

هكذا انقسم العالم الانساني في كل امر الى فريقين فريق المحافظين وفريق المصلحين كلاهما يريد الخير و يطلب السعادة للنوع ولكنهما يختلفان في طرق الخير وسبل السعادة

ومن تتبع سلسلة التاريخ في جميع الازمان يعلم علم اليقين ان المرأة في كل زمان وفي كل مكان قائمة

بوظيفتها الطبيعية ولكنها مستعدة بضروب من الاستعداد الى ضروب من الكمال وانها سارت وتسير في طريق الكمال التدريجي منتقلة من منزلة الى ارقى منها ومن مرتبة الى ارفع منها

فالقول بلزوم بقائها على حال واحدة لا تتغير ولا تتبدل هو خروج بها عن القوانين الطبيعية التي قضت بتغير حالها في الماضي وتهيئها الآن للانتقال من طورها الحالي الى طور آخر . وبالجملة فالاختلاف بيننا وبين الغربيين منشأه ان الغربيين فهموا طبيعة الانسان واحترموا شخصيته فمنحوا المرأة ما منحوا انفسهم من الحقوق في جميع ما يتعلق بالحياة الخاصة ولم ينازعها احد منهم في حق التمتع بحريتها في الاعمال البدنية والعقلية الا ما حرمته الآداب وسوّوا بينها وبين الرجل في كل ذلك وانما اختلفوا في مسئلة مساواتها بالرجل في الحياة العامة فيرى بعضهم ان اشتغالها بالاعمال العامة يخرجها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ويرى البعض الآخر ان هذه

الوظيفة الطبيعية لا تشغل حياة المرأة كلها ولا تشغل كل امرأة فقرّروا المساواة بينها وبين الرجل ايضاً فيما يتعلق بالحياة العامة

اما نحن فاننا لا ننظر الى المرأة نظرنا الى الرجل ولم تستعد عقولنا الى ادراك هذه الحقيقة الظاهرة وهي ان المرأة انسان مثل الرجل فجردناها عن استعمال جميع حقوق الانسان وحرمناها من جميع مزايا الحياة الخاصة والعامة. اما اشتغال المرأة بالاعمال العامة فهو مما لا يدخل تحت مطالبنا في هذا الكتاب ولهذا لا نرى فائدة في الكلام فيه واما ما يتعلق بالحياة الخاصة للمرأة فهو الذي نقصد البحث فيه وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل الاولى حرية المرأة — الثانية الواجب على المرأة لنفسها — الثالثة الواجب على المرأة لعائلتها — وسنتكلم عليها على هذا الترتيب ويلي ذلك مبحث في التربية والحجاب ثم خاتمة تحتوي على حالة الافكار الآن في مصر بالنسبة للنساء

حرية المرأة

لم يخطأ قدماء الفلاسفة في مسئلة خطأهم في معنى الحرية الانسانية وذلك انهم كانوا يعتقدون ان الله خلق الناس على قسمين قسم ميزه بالحرية والقسم الآخر قضى عليه بالرق

وكانت معيشة الاحرار بعيدة عن الاستقلال الذاتي ومتأثرة بسلطة رؤساء العائلات ورؤساء الحكومة

والتاريخ يحدثنا بان الحكومة في تلك الاعصر الخالية كانت تتداخل في كل ما يتعلق بالحياة الخاصة وكان لها الشأن الاول في نظام العائلة والتربية والديانة والاخلاق والعواطف حتى انها كانت تحدد في المعاملات التجارية اثمان البضائع . وقد وصلت بها الاثرة بالتداخل في شؤون الحياة الخاصة الى حد ان قوانين اليونان القديمة كانت تحجر على النساء الخروج من منازلهنّ الا في

احوال مبينة . فكانت العيشة الاجتماعية هي اشبه شيء بالعيشة العسكرية يأمر الحاكم حينما يريد بما يريد وما على المحكومين الا ان يطيعوا اوامره

ولما تقدم العالم في المدنية تخلص الفرد شيئاً فشيئاً من سلطة الهيئة الاجتماعية ووسع في دائرة حريته وانعكس الامر فما كان في السابق اصلاً عاماً اصبح الآن من المستثنيات . ومن ثم صارت غاية التمدن ان ينال الفرد اقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية

ذلك لان الانسان ترقى في فكره فهو يرى ان تسليم نفسه الى تصرف الحاكم امرٌ لا تسلم به منزلته من الانسانية ولا يتفق مع راحته وسعادته . ولهذا فهو لا يقبل ان يتنازل لاحد عن حريته ولا ان يأمن احداً عليها ولو كان اقرب الناس اليه ولا يسمح بان يترك منها الى الحكومة الا بقدر ما يلزم تركه لتتمكن من تأدية وظيفتها وهي المحافظة على الامن العام في الداخل والمدافعة عن سياج الامة في الخارج . وايضاً القيام بالاعمال التي تعود

منفعتها على الجميع

بحسب هذا الشرط يخضع الفرد الى ما تقرر عليه من الاعمال والاموال اما اذا ارادت الحكومة او اي فرد من الناس ان يدخل في عمل من اعماله او شأن من شؤونه الخاصة فانه يشعر بثقل الضغط عليه ويجد في نفسه ألم الظالم

ولذلك سببان

الاول ان رأي الحاكم ان طابق هوى شخص فقد يخالف اهواء الاغلب لان الامزجة مختلفة والغرائز متباينة والاذواق متفاوتة على حسب الاشخاص والاعمار والازمان والامكنة فوضع قاعدة واحدة لجميع الاعمال الخاصة بكل فرد لا يسهل على الطبائع البشرية قبوله . والثاني ما دلت عليه التجارب من ان تداخل الحاكم في الشؤون الخاصة للافراد يضعف من قواهم ويحرمها القدرة على تأدية وظائفها ويورث النفوس الخمود والعجز عن العمل والاتكال على الغير وهو وان اشعر بعض النفوس

لذة الكسل والخلود الى الراحة لكنه يعود عليها بالخسة وشقاء المعيشة

فالحرية هي قاعدة ترقي النوع الانساني ومعراجه الى السعادة ولذلك عدتها الامم التي ادركت سر النجاح من انفس حقوق الانسان

ومن المعلوم ان المقصود من الحرية هنا هو استقلال الانسان في فكره وارادته وعمله متى كان واقفاً عند حدود الشرائع محافظاً على الآداب وعدم خضوعه بعد ذلك في شيء لارادة غيره اللهمَّ الاَّ في احوال مستثناة كالجنون والطفولية حتى بالنسبة للاطفال رأى علماء التربية الصحية ان الضغط على الاطفال مميت لعزيمتهم ورجحوا ان يترك الطفل يتصرف في نفسه بحريته وانما على والديه ارشاده ونصحه

فهذه الحرية على ما بها من سعةٍ هي التي يجب ان تكون اساساً لتربية نسائنا

يتعجب بعض الناس من طلبي تخويل الحرية للنساء

ويتساءلون هل هنّ في قيد الرق ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا في الرأي

ليس مرادنا ان نقول ان المرأة اليوم تباع وتشترى في الاسواق ولكن ليس الرقيق هو الانسان الذي يباح الاتجار به فقط بل الوجدان السليم يقضي بان كل من لم يملك قياد فكره وارادته وعمله مالكاً تاماً فهو رقيق

لا اظن ان القارئ المنصف يختلف معي في الرأي ان قلت ان المرأة في نظر المسلمين على الجملة ليست انساناً تاماً وان الرجل منهم يعتبر ان له حق السيادة عليها ويجري في معاملاته معها على هذا الاعتقاد والشواهد على ذلك كثيرة :

فليس من الادب في كثير من العائلات ان لا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه ولا من الادب ان يجلس النساء مع الرجال ولا من الادب ان يأكلن معهم وقد رأيت مراراً بعيني ان الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل قلة الماء

نعم ان معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد في الغالب في بعض الطبقات خصوصاً في بلاد الارياف لكن استعباد المرأة في الطبقات الاخرى وفي المدن موجود على اشكال اخرى :

فالرجل الذي يحجر على امرأته ان لا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته في ان لا تخرج لا يحترم حريتها فهي من هذه الجهة رقيقة بل سجينة والسجن اشدّ سلباً للحرية من الرق — ولا يقال ان عدد الرجال الذين يسجنون نساءهم صار اليوم قليلاً فانه وان قل بالنسبة الى الماضي لكن كلنا نعلم ان من النادر جداً ان تكون المرأة متروكة لارادتها واختيارها في ذهابها وايابها على ان كلامنا الآن انما هو في مقام المرأة في نفس اغلب الرجال وما يجب عليها في اعتقادهم ان تعمل به وان تكون عليه فسواء قل احتباس المرأة او لم يقل فالمرأة المقصورة في بيتها التي لا تفارقه تعتبر عندهم خير امرأة

ولو اخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم وهم اهل

الرأي عندهم لرأوا من الواجب عليهم ان يسجنوا نساءهم وان لا يسمحوا لهنّ بالخروج الا لزيارة الاقارب في العيدين ورأوا من الافضل ان لا تخرج من بيتها في جميع الاحوال وقد عدّوا من مفاخرهم ان لا تخرج المرأة من خدرها الاّ محمولة الى قبرها !

ولا شك ان تقرير الحق للرجل في سجن زوجته ينافي الحرية التي هي حق طبيعي للانسان

والمرأة التي يسوقها والدها كالبهيمة الى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئاً من احواله معرفة تسمح لها بان تتبين حقيقة امره وتحصل لنفسها رأياً فيه لا تعتبر حرّة في نفسها بل تعد في الحقيقة رقيقة . ومن المعلوم ان عموم الآباء في جميع طبقات الامة يزوجون بناتهنّ على هذه الطريقة فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج اما هنّ فلا رأي لهنّ في هذا الامر الخطير الذي تتعلق به سعادتهنّ وشقاءهنّ في المستقبل . ولا يقال ان حال الرجل في ذلك كحال المرأة اذ هو ايضاً لا يعلم من احوال

خطيئته شيئاً لان الرجل يمكنه ان يتخلص من عواقب جهلهِ بان يطلقها في اي وقت شاء او يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع اما المرأة التي تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها الى الخلاص منه سبيلٌ. فتزويج المرأة برجل تجهله وحرمانها حق التخلص منه مع اطلاق الارادة للرجل في امساكها وتسريحها كيف يشاء هو استعباد حقيقي

والمرأة التي يجب ان لا تتعلم الاّ فروض العبادة كما يقول الفقهاء ومن اخذ عنهم او يجب ان لا تتعلم الاّ مقداراً محدوداً من مبادي بعض العلوم تحسب رقيقة لان قهر الغرائز الفطرية والمواهب الالهيـة على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النموّ الى ان تبلغ الـكمال الذي أعدت له يعد استعباداً معنوياً

والمرأة التي تلزم بستر اطرافها والاعضاء الظاهرةَ من بدنها بحيث لا تتمكن من المشي ولا من الركوب بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم الا بمشقة تعد رقيقة لان تكليفها بالاندراج في قطعة من قماش انما يقصد منهُ ان

تمسخ هيئتها وتفقد الشكل الانساني الطبيعي في نظر كل رجل ما عدا سيدها ومولاها

وبالجملة فالمرأة من وقت ولادتها الى يوم مماتها هي رقيقة لانها لا تعيش بنفسها ولنفسها وانما تعيش بالرجل وللرجل وهي في حاجة اليهِ في كل شأن من شؤونها فلا تخرج الا مخفورة بهِ ولا تسافر الا تحت حمايتهِ ولا تفكر الا بعقلهِ ولا تنظر الا بعينهِ ولا تسمع الا باذنهِ ولا تريد الاّ بارادتهِ ولا تعمل الاّ بواسطتهِ ولا تتحرك بحركة الاّ ويكون مجراها منهُ فهي بذلك لا تعد انساناً مستقلاً بل هي شيء ملحق بالرجل

انظر الى صبي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة وقارن بينه وبين والدته تجد انها احط منه في العقل والمعلومات والتجارب وانه اكبر منها شأناً ليس فقط فيما يتعلق بالامور الخارجة عن المنزل بل في نفس بيتها . كيف لا وهو الذي يأمر وينهي فيهِ وهو الذي ينوب عنها في اشغالها وادارة بيتها وتدبير ثروتها

انظر الى امرأة تمشي في الطريق ومعها خادم تجد في نفسك لأول وهلة ان الخادم يشعر من نفسه انه هو صاحب الارادة والرأي والقوة يمشي امامها وهي وراءه وكأن لسان حاله يقول اني أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفـة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها

لاحظ ان امرأة محجبة تمر على جماعة من اهل الخلاعة تجد انهم لا يتحاشون من اسماعها كل ما يخطر على بالهم من العبارات المخلة بالادب وفي بعض الاحيان يتراموں عليها باجسامهم ويلمسونها بايديهم مع انه لم يصدر من تلك المرأة حركة يرتاب فيها وتغريهم بالاندفاع عليها والتهافت على هذه الافعال القبيحة . لمَ تصبر المرأة على مثل هذا الاعتداء من الرجال ساكنة خائفة لا تنبعث الى دفاع ولمَ لا يجرأ هؤلاء الرجال على اتيان ما يأتونه من الاقوال والاعمال الشنيعة مع امرأة سافرة ؟ هل ذلك لأن المرأة المبرقعة اشد فتنة للرجال بجمالها من النساء السافرات ؟ كلاّ . وانما وقر في نفوس الرجال

عندنا ان البرقع والحبرة هما عنوان الجهل والضعف وآية الانخداع ورأوا في عائلاتهم ان المرأة ليست محترمة ولا تحس باحترامها لنفسها وانها سهلة القياد لينة المغمز تتبعه لأول اشارة يبديها اوكلمة يرميها وانها تخشى الرجل ولا تجرأ على تأديبه فاستخفوا بها وتجاسروا على امتهانها وتعودوا على ان لا يحترموا امرأة مبرقعة الا اذا وُجد معها رجل ولوكان خصياً !

فهل هذه الذات الحقيرة متمتعة بحريتها ؛ وهل مع هذا الامتهان تعد نفسها نفس انسان ؟

سيقول قوم كيف لمدعٍ ان يدّعي ان المرأة مستعبدة عندنا مع انّا نراها في مكانة من السلطان على قلب الرجل منّاً بحيث تسخرهُ لارادتها وهواؤها وتصرفه في اعماله لقضاء رغائبها وان الرجل ليتجشم الاسفار ويتردد بين المدينة والاخرى لينتقي لزوجته لباساً او يختار لها نوعاً من انواع الحلي يرضى به هواها ويقضي به رغبتها فيستجلب رضاها ثم هي سيدة بيته لا يرفع فيه الا ما

رفعت ولا يضع فيه الا ما وضعت فهل مع هذا كله يقال ان المرأة مسترقة للرجل ؛ نعم لا ننكر شيئاً من هذا كله ولكنا ننكر ان يكون ذلك عاماً عند جميع الناس كما ننكر انه ناشيء عن احترام الرجل للمرأة واعتقاده باستحقاقها لهذه المعاملة بما لها من العقل والأدب وما كسبته من حق الصحبة الناشيء عن عقد الزواج . وانما يرفع المرأة احياناً الى تلك المنزلة افراط في الشهوة من الرجل يحدثه براعة في الجمال او تفنن في ضروب الاحتيال . فهي سيدته ما تعلقت بها شهوته فاذا خمدت نيران الشهوة وعاد ما بينهما الى المعروف مما بين رجل وزوجته سقطت المرأة من أوج عزتها الى حضيض الذلة ولبست ثياب الاسترقاق

سيقال ايضاً ان حرية المرأة تستلزم في الواقع ان يعاملها الرجل بالاحترام وان لا يضغط على ارادتها وفكرها وان يسمح لها بالخروج للزيارة والرياضة ولكن ما العلاقة بين حريتها وكشف وجهها واختلاطها بالرجال ومعاملتها لهم . فالجواب ان الزام النساء بالاحتجاب هو اقسى

وافظع اشكال الاستعباد . ذلك لأن الرجال في اعصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء أما بالشراء كما بيناه واما بالاختطاف

وفي كلتا الحالتين كانوا يعتبرون انفسهم مالكين نساءهم ملكاً تاماً وتبع ذلك لن الرجل جرد امرأته عن الصفات الانسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهي ان تمتعهُ بجسمها فاقرها في مسكنهِ وألزمها بان تلازمه ولا تخرج منه حتى لا يكون لاحد غيره حظ في ان يتمتع بها ولو بالنظر او الحديث . شأن المالك الحريص على ملكهِ الذي يريد ان يستأثر بجميع مزايا المتاع الذي يملكه

ولما كان من المحال ان لا تعرض ضرورة تقضي على المرأة بالخروج من منزلها في بعض الاحيان اراد ان يتبعها بالحجاب حيث سارت فالزمها بستر وجهها اذا خرجت

هذا الحجاب الذي قرَّره الرجل في الاصل الى زوجته تعدى بعد ذلك الى البنات والامهات والاخوات

والى عموم النساء لأن كل امرأة هي زوجة او كانت زوجة او مستعدة لأن تكون زوجة

فالحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم وأثر من آثار تلك الاخلاق المتوحشة التي عاشت بها الانسانية اجيالاً قبل ان تهتدي الى ادراك ان الذات البشرية لا يجوز ان تكون محلاً للملك لمجرد كونها انثى كما اهتدت الى ان تفهم ان سواد البشرة ليس سبباً لأن يكون الرجل الاسود عبداً للابيض

وليس من الغريب بقاء الحجاب بعد زوال السبب الذي اوجده اي بعد خروج المرأة عن ملكية الرجل فقد جرت سنة الله في خلقه بان الانتقال من طورٍ الى طور آخر لا يكون دفعة واحدة وانما يحصل بضروب من التغيير ربما لا يحس بها من كانوا موضوعاً لها. فكثيراً ما يظن الناس استحالة انتقالهم عن حالة من الحالات مع انهم سائرون عنها منتقلون الى غيرها متحولون الى اردأ او احسن منها وهم لا يشعرون . حتى اذا انتهت

الحركة الى غايتها ظهر لهم انهم صاروا الى الطور الذي كانوا من قبل ينكرون

فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنّة التدريج ان تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان لكنه ناقص غير تام . كبر على الرجل ان يعتبر المرأة التي كانت ملكاً لهُ بالامس مساوية له اليوم فحسن لديه ان يضعها في مرتبة اقل منه في الخلقة . وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات وانها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات يلزم ان تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بان تقصر في بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها او تخدعهم بحيلها وانها ليست اهلاً للرقيّ العقلي والادبي فيلزم ان تعيش جاهلة

وذلك هو السرّ في ضرب الحجاب وعلة بقاءه الى الآن فاول عمل يعد خطوة في سبيل حرية المرأة هو

تمزيق الحجاب ومحو آثاره

ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا ان نبحث في طبيعة المرأة لنعلم ان كانت كما يقال احط من طبيعة الرجل ام لا

اذا سألنا الرأي العام فالجواب سهل معلوم . ولكن الرأي العام لا يصح ان يكون له صوت في مسئلة علمية كهذه ، لان مبنى الرأي العام القضايا المشهورة التي صاغتها العادة وقرَّرتها الالفة بدون بحث ولا تنقيب . فهي مرجع العامة في احكامها يردون اليها كل حادث طبيعي او اجتماعي لا يعرفون اسبابه والرأي العام يعتبر ان تغيير كل عادة الفها مخالف للطبيعة لانه لا يفرق بين العادة والطبيعة حيث يظن ان ما هو حاصل الآن كان كذلك وسيبقى الى الابد

ولا ريب ان المرأة اليوم احط من الرجل في الجملة ولكن علينا ان ننظر هل هذه الحال طبيعية لها او

ناشئة عن طرق تربيتها . تلك هي المسئلة التي يلزمنا حلها ان نرجع الى الاصول العلمية لنعلم ما تقرّره فيها

رأى العلماء انه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ استعدادها للكمال الانساني بآثارها التي صدرت منها الى الآن . وانما يصح ذلك بعد ان تملك من حريتها ما يملك الرجل وبعد ان تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوي المدة التي قضاها الرجال في تربية ملكاتهم العقلية والادبية غير انهم حكموا بان المرأة ليست مثل الرجل في الخلقة وانه يوجد بين الصنفين اختلافات تشريحية وفسلوجية يمتاز بها كل صنف عن الآخر ولكن ليس في هذه الاختلافات ما يدل على ان احد الصنفين ارقى من الآخر او احط منه

ذلك ما يستنتج من كلام العلاّمة جاك لوربيت في كتابه المسمى المرأة امام المعلم

وقال الاستاذ فرشلو : « اني ألقيت دروساً كثيرة في العلوم الحسابية وعلوم الاخلاق والفلسفة لطلبة العلم

وكان بينهم كثير من النساء والذي شاهدته بنفسي هو انه لا يوجد فرق بين الصنفين وكانت دائمًا نسبة الدرجات بينهما واحدة . »

وقال العلامة مانتجازا المدرس لعلم الانسان والعضو في مجلس الشيوخ الطلياني في كتاب جديد سماه فسلوجيا المرأة « جميع المناقشات التي تدور على خفة مخ المرأة في الوزن وصغر جمجمتها وضعف اللفايف المخية تلك المناقشات عبث اذا أريد ان يتوصل بها على اختلاف القوى العقلية بين الصنفين » ثم قال :

« ما اكفر الرجل الجاهل كبره ان يزور حتى في علم »
« التشريح فلم يكتف بان يغتصب المحل الاول في العالم »
« بل اراد ان يبرهن ان المرأة اقل منه في الانسانية »
« وانها في مرتبة بين القرد والانسان . ولهذا فيكون »
« له الحق في ان يجرّدها عن الحقوق التي منحها نفسه »
« كأنه نسي ان الذات التي يريد ان يحط بقدرها هي »
« امه . والحقيقة ان المرأة امام علم التشريح ليست اقل »

« من الرجل ولا ارقى منه وانما تختلف عنه لان لها »
« وظايف تقوم بها غير وظايف الرجل

وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للاحساسات والعواطف فقال ما ملخصه : ان السبب في اهمّ ما تختلف فيه المرأة عن الرجل من الجهة الادبية هو الاستعباد الذي استولى على المرأة زماناً طويلاً حيث تغلب الرجل على المرأة في الطبقة السفلى بقوة عضلاته وفي الطبقات الاخرى بعلو معارفه وتربيته . وهذه المنزلة المنحطة قضت على المرأة بان تستعمل حيل الرقيق لتدافع عن نفسها . ويظهر ان الرجل يمتاز عليها بقوة عزيمته وزيادة الثبات في اعماله . ولكنها تمتاز عليه في قوة الاحساس وتحمل الآلام وهي تصبر على الامراض والعمليات الجراحيـة صبراً يعجز عنـه الرجل وربما كان السبب في ذلك انها اقل اثرة من الرجل او انها اعتادت على الاستسلام والخضوع

وتمتاز المرأة على الرجل ايضاً بانها اضعف شهوة

منه فالحب عند الرجل ميل شهواني الى استيفاء اللذة الجسدية والحب عند المرأة وداد قلبي غايته امتزاج الروحين واستدلّ على ذلك بان الرجال يستعملون جميع انواع الحيل والخديعة مع النساء لاستمالتهنّ والكثير منهنّ مع ذلك يدافع عن عرضه ويتغلب على شهواته وقال انه اذا عكس الامر وفرضنا انه أبيح للنساء ان يستعملنَ مع الرجال لاستمالتهم ما يستعمله هؤلاء الآن مع النساء فربما لم يستطع رجل ان يحافظ على عفته

وقال ان حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة اما الرجل فيسود عنده حب النفس لذلك تراه يفتكر اولاً في نفسه ثم في اولاده بخلاف المرأة فهي تفتكر اولاً في غيرها ثم في نفسها فهمّ الرجل ان يكون سعيداً وهمّ المرأة ان تجعل الغير سعيداً . وهذا الاحساس يشاهد في جميع اعمال الحياة صغيرها وكبيرها واعظم مثال لايثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأُم لولدها . فهي تحبه اكثر مما يحبه ابوه وتحبه مهما كانت عيوبه بل يمكن

ان يقال انه كلما كان ولدها سيء البخت زاد حبها له . والاب على عكس ذلك

فالمرأة في رأي اعظم العلماء وادقهم بحثاً مساوية للرجل في القوى العقلية وتفوقه في الاحساسات والعواطف وانما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لان الرجال اشتغلوا اجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوّت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فانهنّ حرمنَ من كل تربية فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي . لا نريد بهذا التساوي ان كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ولكنا نريد ان مجموع قواها وملكاتها تكافأ بمجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما لان مجرّد الخلاف لا يوجب نقص احد المتخالفين عن الآخر

فعلى اي دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النساء وبأي حق جاز لهم ان يحرموهنّ من حريتهنّ ؟ لنفرض

جدلاً ان عقل المرأة اقل من عقل الرجل فهل نقصان العقل في شخص يبيح ان يجرَّد من حريته ؟ اما يوجد بين افراد الرجال اختلاف في العقول اكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء ؟ أليس عقل المصري يختلف باختلاف طبقات الامة المصرية ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدنية ؟ ألا يوجد بين نساءنا المصريات من هنَّ اكبر عقلاً واكمل اخلاقاً من ازواجهنَّ او ابائهنَّ او ابنائهنَّ ؟

لا يصح ان يكون اختلاف العقول سبباً لتجريد الانسان عن حريّته بل الذي يجرّ اليه الاختلاف انما هو ان يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الاقناع او تسود ارادة على ارادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها

وما قرَّرته الشريعة الاسلامية من حقوق المرأة وقد اشرنا اليه في ما تقدم يقودنا الى ان هذه السلطة الادبية هي التي ترمي اليها الآية الشريفة التي ذكرت ان الرجال قوامون على النساء وقد نحت الشرائع الاوروبية

هذا النحو نخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ومع ذلك فكل انسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهنَّ

لنفرض جدلاً ايضاً ان حجاب النساء وسيلة لصيانتهنَّ عن الفساد فهل يكفي ذلك لحرمانهنَّ من حريتهنَّ ؟

اذا كانت معاملة الرجال للنساء مجابة للفساد فلماذا تداس حرية المرأة وتحترم حرية الرجل ؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة الى الرجل والمرأة وهل يوجد حقَّان حق للرجال وحق للنساء ؟ أليس كل ذي اختيار موكولاً الى اختياره يتصرَّف به كيف يشاء متى لم يخرج في عمله عما حدده له الشرع والقانون ؟

نرى ان مسئولية المرأة في هذه الدنيا وفي الآخرة لا تقل امام الشرع عن مسئولية الرجل ونرى ان القوانين لا تعافيها من العقوبات اذا ارتكبت جريمة ولا تقضي بتخفيف عقوبتها بل نرى ان الرأي العام جسَّم مسئوليتها

حتى جعلها اشد من مسئولية الرجل فاذا استهوى رجل عمره اربعين سنة بنتاً عمرها خمسة عشر سنة وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها يحكم الرأي العام ان هذه البنت الصغيرة هي التي فقدت شرفها ويهمل شأن الرجل كأنه لم يأت منكراً أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان ان المرأة مسئولة عن اعمالها ؛ فان كانت مسئولة بهذه الدرجة أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان ايضاً بانها حرّة مختارة ؟

لا اظن ان عقلاً يقبل ان تعتبر المرأة انساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت ثم تعتبر انها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية !

اعتقاد الرجل ان امرأته اذا منحت حريتها تسيء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها لانه لا يباح لانسان ان يتعدى على آخر بسلب حرّيته والسيطرة على ارادته بحجة انه يريد منعه من ارتكاب خطيئته ولو جاز لدفع

ضرر محتمل الوقوع تجريد الانسان عن حريته لوجب وضع تسعين في المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعاً لهم من الفساد

بل لو قبلت المرأة ان يوضع عليها الحجاب لم يعتبر قبولها هذا التزاماً صحيحاً بحيث يمتنع عليها بعد ذلك ان تحل عقدته لانه التزام باطل لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية

على ان ما قيل ويقال من ان حرية النساء تعرضهنَّ للخروج عن حدود العفة كله كلام لا اصل له يبطله التجارب وينبذه العقل اذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدلّ على ان حرية النساء تزيد في ملكاتهنَّ الادبية وتبعث فيهنَّ احساس الاحترام لانفسهنَّ وتحمل الرجال على احترامهنَّ

ولا نذهب في تأييد هذا الرأي مذهب غيرنا بالاتيان باحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم في الجرائد الهزلية تفكهةً للقراء ونسب فيه الى احد العلماء انه شاهد

ان المرأة الالمانية تخون زوجها سبع مرات ! والبلجيكية ست مرات واربعة اخماس المرة ! والهولندية اربع مرات ! والطليانية مرة وخمسة اسداس ؛ والفرنساوية مرة واحدة !! وهكذا الى ان وصل الى التركية والمراد بها الشرقية فقال انها لا تخون زوجها الاّ عشر المرّة الواحدة !!!

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الاحصاء الى الاعتقاد بان ما نشر في تلك الجريدة على سبيل الهزل هو من « الابحاث العلمية الدقيقة المستندة على الارقام » ولم يمرّ بفكره ان الحصول على احصاء في مثل هذا الموضوع هو من الامور المستحيلة لان وقائع الزنا لايمكن احصاءها الاّ اذا وصلت الى المحاكم ومعلوم انه لا يصل الى المحاكم منها الاّ النادر

ولا نسند رأينا ايضاً الى قضايا مسلمة تؤخذ من غير دليل كما يفعل أولئك الذين يدعون ان المرأة متى جلست مع الرجل في مكان واحد مدة خمس دقائق

وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات . فان كل قضية لا ترجع الى احد انواع البديهيات المعروفة عند اهل النظر لا تصح ان تكون مقدمة لدليل . أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم بدليل على ما يقول لما وُجد في خزانة مخه الا ان الرجل والمرأة هما دائماً في طوع شهواتهما هكذا شأنهم يستملون من انفسهم الاخلاق التي جبلوا عليها ويعتقدون انها اخلاق الانسانية كلها فهم في نظر انفسهم يمثلون الرجل من حيث هو والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثل في نظرهم المرأة من حيث هي . وما دروا ان الرجال يختلفون في اخلاقهم ومزاياهم الى ما لا نهاية له على حسب الزمان والمكان وطرق التربية وان المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال

هذا الاختلاف الذي يعرض في حياة النساء الادبية ينشأ غالباً من اختلاف العادات

اول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو ان

تكون عفيفة ولهم الحق في ان يطلبوا منها ان تكون متحلية بهذه الفضيلة ولكنهم بذلوا ما في وسعهم لمحو هذه الفضيلة وجعلها من المستحيلات . وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل الى الشهوات فان سجن المرأة والتضيق عليها في وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الاعصاب ومتى ضعفت الاعصاب اختلّ التوازن في القوى الادبية . هذه حقيقة يلزم ان يعترف بها كل انسان فان من الحقائق الثابتة ان الجسم اذا كان قوياً وكان القلب يرسل الدم الى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الانسان بقوتها فكما لا تنهزم عند ملاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهي لا تضعف عن مقاومة الاهواء والنزعات الرديئة ومن المشاهد ان التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور في الجسم وانحلال في القوى يؤثران في الارادة وفي العزيمة فكما اذا حاول الجسم نهوضاً لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل الى الراحة كذلك تشعر النفس بعجزها عن ضبط اهوائها ومقاومة

كل ميل تقتضي مدافعته جهداً ومشقة

لا شك ان قوة البنية وسلامة الاعصاب هما من اهم اعوان الانسان على ضبط نفسه وان ضعف البنية واعتلال الاعصاب هما من اهم الاسباب التي تجعل الانسان آلة تلعب بها الشهوات والاهواء

فان كانت حاجة الى الاستشهاد برأى بعض العلماء على ما نقول فاني انقل ما قاله رجل اجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلوري

قال في كتابه المسمى جسم وروح الولد : « ان آلة العقل هي المخ فكل انحراف يعرض في الصحة البدنية يؤثر فيه فاذا استوفينا شروط صحة الجسم امكننا ان نحصل سلامة الارادة وقوة الحكم ونحسّن في اخلاق المرء وآدابه »

فالنسآء المسجونات يحسبنَ قبل كل شيء نسآء مريضات ولهذا فهنّ اشد تعرضاً لمطاوعة شهواتهنّ من النساء اللواتي يتمتعنَ بحريتهنّ

فاذا اقترن الحجاب بالبطالة ولا يمكن انفكاك الحجاب عنها تبعهما قتل كل فضيلة في نفس المرأة

هذا التلازم بين الحجاب والبطالة لا يروق لبعضنا التصريح بوجوده وربما يعجبهم ان يقال ان نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل اوقاتهن وان منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سبباً في تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها الى امور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها . ولكن نحن لا يهمنا الا تقرير الحقيقة كما هي نحن نقول ان وجود الواجبات شيء والقيام بها شيء آخر وان نساءنا اللاتي لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما يسع القيام بواجباتهن لأزواجهن واولادهن وانهن تركن شؤون الحياة البيتية الى غيرهن بخلاف النساء الغربيات التي اتسعت دائرة اعمالهن حتى كادت تساوي دائرة اشغال الرجال فانهن يجدن مع ذلك الوقت الكافي لتأدية جميع واجباتهن المنزلية . وما سبب ذلك الا ان العمل يدعو

الى العمل والراحة تدعو الى الراحة

ثم ان الطريقة التي يربى بها الاطفال في البيوت لها مدخل عظيم في انحطاط الآداب ايضاً

يمكني ان اجاهر هنا بلا تردد ان صبياً من اولادنا ذكراً كان او انثى لا يزيد عمره عن عشر سنوات قد يحشد الى ذهنه من الالفاظ والصور المحركة للشهوة وينمو في قلبه من الميل مع ما تدعو اليه غريزة التناسل ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب او شابة في سن الخامسة عشر او الثامنة عشر من ابناء البلاد الاوروبية

وليس لاختلاف الاقليم دخل في ذلك وان كان له أثر فهو أثر ضعيف وانما الاثر الحقيقي فهو لطريقة تربية الاطفال

لو كان الرجال الاذكياء والمتعلمون منا يلاحظون ما يقع ويقال امامهم كل يوم لو كانوا يفتكرون في ما يعرض على اعينهم وآذانهم في الطرق والمجتمعات في كل آن لاتفقنا جميعاً في هذه المسئلة وغيرها من المسائل

الأُخرى التي لا سبب لاختلاف الرأي فيها الاّ اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام احد منا بان يفهم ما يقول الآخر

لو امكنناً ان نفصل جميع المؤثرات المادية والادبية التي تتكوّن منها احساسات الطفل واميالهُ لرأي القارئ بنفسه ان البنت التي تربى في عائلة مصرية لا يمكن ان تمو فيها خلال الفضائل ويكفينا ان نذكر هنا امثالاً من هذه المؤثرات التي تقع في العائلات المتوسطة التي هي احسن الطبقات ادباً :

فمنها ان اقارب الاطفال لا يتحاشون غالباً عن تسمية كل شيء باسمه الحقيقي ويذكرون الوقائع التي تجري بين الزوج وزوجته امامهم بدون ان يخطر على بالهم ان يأمروهم بالخروج في هذا الوقت الى مكان آخر . وايضاً اول شيء يأتي على لسان الزائر اذا صادف بنتاً صغيرة في بيت هو ان يسألها اذا كانت تريد ان تتزوجه او تتزوج بابنه الصغير واذا كانوا عدة زائرين سألها كل واحد عمن

اعجبها من بينهم

ومنها حضور الاطفال في حفلات الافراح ومشاهدتهم رقص الباغيات وسماعهم الاغاني التي تدور كلها على الحب الشهواني

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة الى ما كان يجب ان تغفل عنه وينبت فيها الميل الشهواني

ثم اذا عرض ان بنتاً عانقت صبياً في اثناء اللعب يوجه اللوم عليها من اهلها ويقال لها انها اتت امراً فاضحاً فاذا سألت البنت اي عيب في ما فعلت اجابها المسؤل بما يعن لهُ وما تسمح له به تربيته وكلما تقدمت الصبية في السن زاد الحجر عليها وابعادها عن مخالطة الرجال وفي هذا من استلفات ذهنها الى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها الى البحث في هذا الامر الذي يشغلها و يشغل اهلها الى هذا الحد فتسأل عنه من تثق به من زميلاتها فتتعلم منهنّ بعضه وتشتغل مخيلتها بفهم الباقي

فهذه المعيشة التي تمرّ على البنت واهم ما فيها عندها الرجل واحواله ونسبتها اليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه هي بلا ريب اعظم مؤثر في مزاجها لانها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الاول في حياتها

ولنأكد الرجال من صحة ما ذكرنا وشعورهم بان النساء لا همّ لهنّ ولا شاغل لعقولهنّ الاّ شأنهنّ مع الرجال لا ترى رجلاً بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل اجنبي عنها . وفي بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقته ولا يسمح لامرأته ان تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضراً معها ! وكذلك في كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته

وليس من رأيي ان اعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض الى هذا الحد . لان عوائدنا واخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بان لا يثق بعضهم ببعض وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخلق ولا من

حسن الادب ادنى وسيلة لصيانة العفة والتنزه عن الفحش

ولكن ليسمح لي القارئ ان آتي على بقية فكري فاقول :

بقي الحجاب الى الآن مستمراً للاسباب التي بيناها اي لانه كان تابعاً لهيئتنا الاجتماعية الماضية من الجهة السياسية والعقلية والادبية : كنا محكومين بالاستبداد فظننا ان السلطة العائلية لا تؤسس الا على الاستبداد فسجنّا نساءنا وسلبناهن حريتهن وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج واستعملنا في تربية اولادنا الامر والنهي والاخافة والضرب . وكنا جهالاً فتخيلنا ان المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها الا ان تكون موضعاً لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته وفاتنا انها هي ايضاً انسان مثلنا وان لها الحق في ان تسعى الى طلب سعادتها بالوسائل التي وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم فلما اسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منا وشدد انتقامه . فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية وانحطت

اخلاقنا وفسدت تربية اولادنا واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظن الكثير منا ان حياة الامم الاسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبقَ لها في التزاحم العام نصيب من النجاح واخذوا يتباهون بالمدنية الاسلامية القديمة كلما تحدث الاوروبيون بعلومهم وفنونهم ويفتخرون بالتمدن العربي في الاعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربي الحديث كما تسلي نفسها عجوز وصلت الى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها

لكننا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييراً كلياً فاصبحنا احراراً ونحب الحرية وبدأ التعليم الصحيح في ان ينتشر بين افراد امتنا وتهيأت عقولنا الى ادراك منزلة الانسان في الوجود ومرتبة المرأة في البيت وشأنها في العالم فهل يليق بنا بعد هذا ان نحافظ على العادات والتقاليد القديمة ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة او يكون من الاليق بنا ان نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التي انتقلنا

اليها و يكون من شأنها ان ترتقي بنا الى ما هو خير منها ؟

وبعبارة أخرى يوجد مذهبان احدهما ينصح الناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بابطاله فاي هذين المذهبين يجب ان نختاره وما هو رائدنا في الاختيار حتى لا نقع في عاقبة الخطإ ؟

اذا استخدمنا عقولنا واتخذنا الفكر السليم رائداً لنا فلا شك انَّا نختار المذهب الذي يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ولا نخشى بعد ذلك ان يقع اختيارنا مخالفاً للحق والصواب لان المنافع الصحيحة التي تقوم على قواعد الفكر السليم هي من الحق الذي يدافع عنه الشرع ومن المستحيل ان حقاً من الحقوق التي يدافع عنها الشرع يكون منشأً لضرر يعود على الناس او ان فضيلة من الفضائل يكون شرها أكبر من نفعها

فاي المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ؟

اما الحجاب فضرره انه يحرم المرأة من حريتها الفطرية . و يمنعها من استكمال تربيتها . و يعوقها عن

كسب معاشها عند الضرورة . ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والادبية . ولا يتأتي معه وجود أمهات قادرات على تربية اولادهن . وبه تكون الامة كانسان أصيب بالشلل في احد شقيه

ومزاياه تنحصر في امر واحد هو انه يقلل الزنا حيث يحول بين الصنفين ويمنع الاختلاط بينهما في الظاهر وان لم ينزع الميل اليه من النفوس . فيكون ما يسمونه عفة على حد ما قيل « ان من العصمة ان لا تجد » فالاجساد في صيانة واغاب القلوب في خيانة واما الحرية فمزاياها هي ازالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها وضررها الوحيد انها في مبدأها تؤدي الى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة الى ان تعرف مسؤليتها وتحمل تبعة اعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود

حائل ليس في الامكان ازالته بل لانه قبيح في نفسه

وليس من الممكن ان تصل المرأة الى هذه المنزلة الادبية ما دامت في الحجاب ولكن من السهل جداً ان تصل اليها بالحرية

تصل اليها كما وصلت اليها غيرها من النساء الغربيات فانا نرى انه كلما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها

قال العلامة مانتجازا : «اعظم شيء يؤثر في اخلاق البنات الحرية التي تعطى اليهنّ من عهد طفوليتهنّ »

وقال « ان الفضائل الجليلة التي تشاهد عند النساء اللاتي يتمتعنَ بحريتهنّ لا يصح ان تنسب الى الاقليم . لاني وجدت هذه الفضائل في بيونس – آيرس التي تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها اديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية . ولو كان لطبيعة الاقليم مثل هذا الاثر في الاخلاق لفسدت اخلاق النساء في تلك البلاد . كانت البنات عندنا في القرن الماضي وفي مبدأ هذا القرن

لاتخرج من الاديرة الاّ عند الزواج وكنّ جاهلات بكل ما يتعلق بالحب فكنّ يتلقينَ دروس الحب من غير الزوج في اغلب الاحيان . ذلك لأن من القواعد العامة ان البنت التي لاتختار زوجها بل تكاف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التي توصلها الى الخطيئة فلا شيء يقي البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد ان تعرفه وتقارن بينه وبين غيره من الرجال . »

وقال في وصف نساء وطنهِ : « ان المرأة الطليانية اقل من غيرها عفة لانها تتزوج غالباً من غير ان تحب زوجها وكذلك الحال تقريباً في نساء فرانسا »

اما النساء الانكليزيات والاميركانيات والالمانيات فاثني على كمال عفتهنّ ونسبها الى طرق تربيتهنّ وتمتعهنّ بالحرية والاستقلال في اعمال الحياة . فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة ولكن ما اعظم الفرق بينهما في النتائج التي تترتب عليهما ! حيث ان الوسيلة الأولى تضع المرأة في صف الادوات والامتعة وتجني على الانسانية .

والثانية تخدم الانسانية وتسوق المرأة في طريق التقدم العقلي والكمال الادبي

فقد رأيت مما ذكرناه ان ما اخترناه في تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنياً على امر نظري لا يستند الى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة

وصل احترام الرجل الغربي لحرية المرأة الى حد ان الأب يحجر على نفسه فتح الخطابات التي ترد لبنته وكذلك الزوج رأى الاجدر به ان لا يفتح الخطاب الذي يرد الى امرأته . وهذه المسئلة الاخيرة كانت موضوع بحث مهم بين اعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريباً وتقرَّر فيها ان سلطة الزوج لا تبيح لهُ ان يطلع على اسرار زوجته لأن هذا العمل يعد تجسساً مهيناً لحرية المرأة وشرفها

نعم ان اغلب الزوجات يطلعنَ ازواجهنَّ على ما يرد اليهنَّ من الخطابات كما ان اغلب الازواج يعرضوا المراسلات التي ترد اليهم الى زوجاتهم . ولكن يوجد

فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يعد واجباً بمقتضى حق يدعى

بلغ من أمر احترام الرجل الغربي لحرية المرأة ان بنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من اميريكا الى أبعد مكان في الارض وحدهن او مع خادمة ويقضين الشهور والاعوام متنقلات في السياحة متنقلات من بلد الى أخرى ولم يخطر على بال احد من اقاربهن ان وحدتهن تعرضهن الى خطر ما

كان من حرية المرأة الغربية ان يكون لها اصحاب غير اصحاب الزوج ورأي غير رأي الزوج وان تنتمي لحزب غير الحزب الذي ينتمي اليه الزوج . والرجل في كل ذلك يرى ان زوجته لها الحق في ان تميل الى ما يوافق ذوقها وعقلها واحساسها . وان تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها

ومع كل ذلك نرى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة ! ونرى هؤلاء الامم في نمو مستمر !

ولم يحل بهم شيء من المصائب التي يهددنا بها أُولئك الكتاب والفقهاء من قومنا الذين اطالوا الكلام في شرح المضارّ التي تنتج عن اطلاق الحرية للنساء ! فكثيراً ما سمعنا منهم ان اختلاط الرجال بالنساء يؤدي الى اختلاط الانساب وانه متى اختلطت الانساب وقعت الامة في الهلاك

فهذه ممالك اوروبا جميعها نساءها ورجالها مختلطون في كل اطوار الحياة وفي كل آن . وها هم اخواننا وابناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تركوا عادة الحجاب من عهد قريب وربوا نساءهم على كشف وجوههنّ ومعاملة الرجال . فاين هم من الاختلال والهلاك ؟

لنترك هذه النظريات الخيالية التي لا قيمة لها امام الوقائع

دلت التجربة على ان الحرية هي منبع الخير للانسان واصل ترقيه واساس كماله الادبي وان استقلال ارادة الانسان كانت اهم عامل ادبي في نهوض الرجال فلا يمكن

ان يكون لها الاّ مثل ذلك الاثر في نفوس النساء

غاية الامر ان كل تغيير يعرض على الانظار في صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو في الحقيقة فكر سبق اوانه وقت عرضه . ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره الاّ العدد القليل ممن يمتد نظرهم الى ما يكنه المستقبل من الحوادث

انظر الى حالة مصر : عاشت الامة المصرية اجيالاً في الاستعباد السياسي فكانت النتيجة انحطاط عام في جميع مظاهر حياتها . انحطاط في العقول وانحطاط في الاخلاق وانحطاط في الاعمال . وما زالت تهبط من درجة الى اسفل منها حتى انتهى بها الحال الى ان تكون جسماً ضعيفاً عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات اكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في اول الامر في حيرة لا تدري معها ما تصنع بحريتها الجديدة

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ولا يقدر

لها قيمة وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية بل ويتألمون منها وينسبون اليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم فكم من مرة سمعنا بأذننا ان سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية وبدأوا يشعرون بان اختلال عيشتهم لا يمكن ان يكون ناتجاً عنها . بل له اسباب أخرى . وتعلق بنفوس الكثير منّا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها . ولنا الامل في ان اولادنا الذين يشبون على الحرية التامة يجنون جميع ثمراتها النفيسة التي من اهمها تهيأة نفوسهم للعمل . عند ذلك يعرفون جيداً ان الحرية هي اساس كل عمران

وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء

اول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ويظن الناس ان بلاء عظيماً قد حلّ بهم لان المرأة تكون في دور التمرين على الحرية ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً

فشيئاً وترتقي ملكاتها العقلية والادبية . وكلما ظهر عيب في اخلاقها يداوى بالتربية حتى تصير انساناً شاعراً بنفسه

ذلك لان النمو الادبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي . فكما ان الطفل يحبو قبل ان يمشي ويتعلم المشي بالتدريج فيمسك الحائط ويستند على يد مرضعته ثم متى تعلم المشي وحده لا يحسنه الاّ بعد تمرين يدوم مدة اشهر يقع في خلالها مرات كثيرة . كذلك الانسانية في سيرها الادبي لا تنتقل من حال الى حال احسن منها الاّ بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط والاختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم في سيرها

تلك سنّة الفطرة . فلا يجوز لنا ان نتخيَّل ان في امكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها . كذلك لا يكون من الحكمة ان نرجع الى الوراء أو نوقف تقدمنا الى الامام

فان اردنا ان نصل الى الغاية التي وجهنَّا اليها آمالنا فما علينا الآن ان نستسلم الى حكم السنّة الالهية ونقبل

المتاعب والمشاق التي بدونها لا يمكن الوصول اليها

والاّ كان مثالنا كمثل، أب مجنون خاف على ولدهِ

اذا مشى ان يسقط على الارض فمنعه المشي حتى كبر

فعاش مقعداً مشلول الرجلين

الواجب على المرأة لنفسها

اول ما يستوقف نظر الشرقي الذي يحل في مدينة من مدن اوروبا هو المركز المهم الذي تشغله المرأة فيها ويظهر له من اول وهلة ان التقسيم المصطلح عليه في بلادنا بين العيشة الداخلية والعيشة الخارجية هذا التقسيم الذي يحول بين اشتراك الصنفين في جميع اطوار الحياة ومظاهرها ليس من القواعد المعترف بصحتها في تلك البلاد

فاذا ترك اوروبا وجال في ارض اميريكا شخص بصرهُ مندهشاً من المنظر العجيب الذي يراه واستولى الاستغراب على عقله الى درجة الاضطراب . فيجد ان تقسيمه العزيز قد اضمحل حتى كاد يكون معدوماً ويرى النساء يشتغلنَ باشغال الرجال والرجال يعملنَ اعمال النساء بلا فرق . ويسمع اهل اميريكا يتهمون سكان اوروبا بانهم ظالمون نساءهم مجحفون بحقوقهن كما يرمي الاوروبيون

رجال الشرق باستعمال الاستبداد مع نساءهم

هذا المنظر يراه الشرقي ويستغربه في اول الامر ثم ينساه

ولا يفتكر فيه بعد ذلك . فيعيش بجانب الغربيين وهو لا يعرف شيئاً من احوالهم . وان اتى ذكرها عفواً في بعض الجرائد او الكتب فلا يحرّك ذلك في نفسهِ ادنى شوق للوقوف على معرفة حقيقتها واستطلاع ما خفي منها

ذلك لانه وقر في نفسه ان عاداته هي احسن العادات وان كلّ ما خالفها ليس جديراً بالتفاته واهتمامهِ

لكن طالب الحقيقة الذي تعود على طريقة الانتقاد العلمي لا يحكم في الحوادث الاجتماعية على هذا الضرب من التساهل

فان رأى يوماً في احدى الجرائد ان الست غوردون ترافعت امام محكمة فرانسسكو الجنائية ودافعت عن رجل متهم بالقتل . ثم رأى يوماً آخر في مجلة ان الست

كاري رينار احدى قسيسات الولايات المتحدة خطبت في الكنيسة في مدينة لوروا على ملاء عظيم من الرجال والنساء . ثم رأى مرة أخرى ان الست ستون تدرّس الاقتصاد السياسي في كلية شيكاغو لطلبة العلم ذكوراً وأناثاً . ثم علم ان لتلك المحامية زميلات يشتغلنّ امام جميع المحاكم ولتلك القسيسة زميلات في كثير من الكنائس ولتلك الاستاذة زميلات في اغلب المدارس . وان تلك النسوة قائمات باعمالهنّ على طريقة لا تزيد ولا تنقص في الاتقان عما يقوم به الرجال في اعمالهم فماذا يعتقد حينئذٍ ؟ يعتقد ان قول الشاعر:

« كتب الحرب والقتال علينا

وعلى الغانيات جر الذيول »

هو قول لا ينطبق على الحقيقة في شيء فلا يصح الاستناد عليه في الرد علينا . ونحن نعذر الشاعر الذي لم يفعل سوى حكاية حال النساء التي وجدهنّ عليها في عصرهِ . ولكن هل يمكن ان نعذر انفسنا في اعتقادنا

ان النساء لا يصلحنَ الاّ لجرّ الذيول مع ان نظرة واحدة في الاعمال النفيسة التي يأتي بها النساء في الغرب تكفي في العلم بان حياة المرأة تصح ان تكون مملوءة بشيء افضل من اللهو واللعب وجرّ الذيول ؟

هذه الصورة التي شخص بها الشاعر صورة المرأة ليست صورة المرأة الحقيقية لانها ليست صورة انسان بل ولا حيوان . اذ ليس في الوجود حيّ الاّ وله وظيفة يؤديها وعمل يشتغل به ولا يوجد بين انواع الحيوانات من افضلها الى ادناها فرد الاّ وهو خاضع لقانون التزاحم في الحياة

اذا اردنا ان نرتب اعمال الانسان بحسب اهميتها نجد انها تنقسم الى ثلاثة انواع . اولها الاعمال التي يحفظ المرء بها حياته . وثانيها الاعمال التي تفيد عائلته . وثالثها الاعمال التي تفيد الوجود الاجتماعي

ومن البديهي ان كل تربية صحيحة يجب ان تمكن الانسان من القيام بهذه الاعمال وان تراعى هذا

الترتيب الطبيعي . فالمعارف التي تضمن سلامة الحياة والقيام بالضرورات والحاجات اللازمة لها هي اهم من غيرها فيلزم ان تفضل على المعارف التي تختص بالواجبات العائلية لانه لا يمكن القيام باي واجب عائلي الاّ بعد قضاء الواجبات الأُولى . كذلك المعارف التي ترشد الانسان الى معرفة واجباته العائلية هي مقدمة على المعارف التي تختص بالواجبات الاجتماعية لأن قوة الهيئة الاجتماعية متوقفة على حسن نظام البيوت

اذا تقرّر ذلك نقول ان التربية التي تشمل هذه الانواع الثلاث على الترتيب الذي وضعناه هي لازمة للرجال والنساء على حدٍ سواء

ولكن دعنا الآن من المزايا والحقوق السياسية فاني ما طلبت ولا اطلب المساواة بين المرأة والرجل في شيء منها . لا لأني اعتقد ان الحجر على المرأة ان تتناول الاشغال العمومية — حجراً عاماً مؤبداً — هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي . بل لأني ارى اننا لا نزال الى

الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالاعمال العمومية وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ويلزمها ان تقضي اعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية

لهذا نترك الكلام على الاعمال والمعارف التي تتعلق بالنوع الثالث ونقتصر في الكلام هنا على الاعمال والمعارف التي تختص بالنوعين الاولين

مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة لا يجوز ان يدعي احد انها يمكنها ان تستغني عن الاعمال التي تحافظ بها على قواها الحيوية وتمدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الانسانية .

كذلك مهما اختلفنا في تحديد وظيفة المرأة في العالم لا بد ان نعترف انها لا يمكنها ان تتخلى عن الاعمال والمعارف التي تتعلق بواجباتها العائلية . اذن فكل تعليم يتعلق بهذين النوعين من الاعمال يكون نافعاً . وكل

تربية تأهل المرأة الى المدافعة عن نفسها وتحسين حال بيتها هو ايضاً نافع

يظنّ الكثير منا ان المرأة في غنى عن ان تتعلم وتعمل ويزعمون ان رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معهُ ان يتحملنَ متاعب الكد وشقاء العمل

ولكن هذا الكلام هو في الحقيقة تدليس على النساء وان كان ظاهره الرأفة عليهن

والناظر في احوال هيئتنا الاجتماعية يرى من الوقائع المحزنة ما يحمله على بينة من ذلك . يرى ان الرجل والمرأة هما خصمان لا يتفقان الا في لحيظات قليلة وانهما يتحاربان اناء الليل واطراف النهار . يريد الرجل ان ينتهز ضعف المرأة وجهلها ليجردها عن كل ما تمتلكه ويستأثر وحده بالمنافع . وتجتهد المرأة على قدر امكانها في الدفاع عن نفسها ولا تجد الى ذلك سبيلاً

ولو جمعت الوقائع القضائية بين الصنفين في كتاب

لكانت احسن ما يمكن ان يكتب للدفاع عن حقوق المرأة

لا اظن اني مبالغ ان قلت انه متى اختلطت مصلحة الرجل بمصلحة المرأة لاي سبب من الاسباب سواء كان لزواج وقع بينهما او لاشتراك في ملك آل اليهما او لتعهد ارتبطا به فاول ما يسبق اليه فكر الرجل هو ان يسلب من المرأة ما يستطيع من حقها . والمسكينة غافلة عن الاخطار التي تحدق بها . وان اكتشفتها فلا يكون في الغالب الا بعد خرابها . وعلى اي حال متى وقعت في الشرك لم يبقَ لها من حيلة الا البكاء والعويل لانها ترى نفسها في حيرة وارتباك لا تدري معهما ماذا تصنع للخلاص

وكل المصريين يعلمون ان النساء في الوجه القبلي عامة كنَّ محرومات من حقوقهنَّ في التركات التى يرثنَ فيها بمقتضى احكام الشريعة . وان هذه الحال بقيت مستمرة الى ان دخل نظام المحاكم الاهلية في

الصعيد حتى ان بعض المديرين الذين اخذ رأيهم في تشكيل المحاكم الجديدة في الوجه القبلي كانوا يعدون من موانع تشكيلها انها لو شكلت يكون من احكامها ان يعطى النساء حقوقهن في التركات وان في هذا تغييراً كبيراً للعادات المتبعة في تلك البلاد !

وليس في هضم حقوق النساء شئ من الغرابة ولا هو مما يوجب الدهشة لاحد

نحن نفهم ان رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبته على ورقة ان ليس على النساء الا ان يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك لان الورق يتحمل كل شيء

وليس من الصعب وضع نظريات خيالية على هذه الطريقة . اذ يكفي في ذلك تركيب بعض جمل مسبوكة في قالب لطيف ليقيم الكاتب نفسه مشرعاً حكيماً ويحكم على القوانين والعادات والاخلاق

وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد على ان يحلل

النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع . فانهُ اذا اراد مثلاً ان يحصل لنفسه رأياً في ما هي حقوق النساء التي نحن بصددها يجب عليه اولاً ان يسوق نظره الى الوقائع التي تمرّ امامهُ . اعني ان يطبق نظاريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه منفذة ومعمولاً بها في قرية ثم في مدينة ثم في اقليم . وتتمثل امامه النساء في جميع اعمارهنَّ واحوالهنَّ وطبقاتهنَّ . فيراهنَّ بنات ومتزوجات ومطلقات وارامل . ويراهنَّ في المدرسة وفي البيت وفي الغيط وفي الدكان وفي الاماكن الصناعية . ويقف على سلوكهنَّ مع ازواجهنَّ واولادهنَّ واقاربهنَّ والاجانب ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادنا وكيف انهنَّ يستعملنَ حقوقهنَّ والنتائج التي ترتبت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة في الازمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها .

ذلك عمل ليس بالسهل . لانه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له ان يحكم في المسئلة حكماً قاطعاً . لانه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها الا تقريبية . لذلك تراهُ دائماً على طريق البحث . لا يركن الى ما وصل اليه جهده الاَّ ليضعه قاعدة لعمل مؤقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل

والامر بالعكس عند صاحب النظرية الخيالية . فهو يعتقد ان قضيته تشبه قضية حسابية فهي لا تخطأ ابداً . مع انها مؤلفة من معانٍ عامة مبهمة لا يستقرّ الذهن فيها على شيء محدود — مثل ضعف المرأة وقوة الرجل وتقسيم المعيشة الى داخلية وخارجية وهكذا — هذه المعاني تملأ عقله . ولكونها مجردة عن الوقائع والمشاهدات فهي في الحقيقة الفاظ يكون عنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان

فهو لا ينظر الى الاشخاص الحقيقيين . ولا يرى نفسه محتاجاً الى ان ينظر اليهم ولا ان يبحث في احوالهم

ولا يخطر ببـاله ان للمادة الانسانية صورة غير الشكل الخيـالي الذي ملك عقله . لذلك لا يهتم بان يرى تلك المادة في صورة امرأة راعية أو زارعة أو صانعة أو تاجرة ولا ان يبحث ان كانت غنية أو فقيرة . عائشة وحدها أو في عائلة . ساكنة في المدن أو القرى أو البادية

هذه الصور العديدة المختلفة لا تنفذ الى مداركه ولا تقرّ فيها لان جميع نوافذها قد سدت بجسم النظرية التي احتلت عقله من اوله الى آخره حتى لم يبقَ فيه مكان لشيء آخر

فهو ان كتب او تكلم لا يكتب ولا يتكلم عن امرأة حية ذات لحم ودم واحساس ووجدان . وانما يكتب ويتكلم عن المرأة التي في ذهنه

وهي امرأة شابة سنها بين العشرين والثلاثين . جميلة المنظر رقيقة الطبع . شهوية المزاج . تكفي اشارة منها لكي تنال ما تشتهيه نفسها لانها ذات ثروة عظيمة او لان لها بعل وافر الثروة ولا يبخل عليها بشيء . اما

اخلاقها فانحطاط النفس والميل الى الكذب والاحتيال والتطلع الى اعمال السوء . لا يحول بينها وبين ذلك الاّ الحكم عليها بملازمة البيت والاحتجاب عن الرجال

ولا نرى في تمثيل المرأة في اذهاننا بهذا المثال الاّ توارثنا اراء العرب فيها

ذلك ان حياة العرب كانت حياة حرب وقتال وارزاقهم كانت من الغنائم . وغنيٌّ عن البيان ان امة معاشها متوقف على القتال لا يمكن ان يكون فيها للمرأة شأن كبير . اذ المرأة في هذه المعيشة لا تستطيع ان تجاري الرجل . ولذلك نزلت درجتها عندهم وسقطت منزلتها بينهم حتى حسبت من المتاع وادوات الزينة وتناولها السلب وعدت من الغنائم كما عد غيرها من الاموال

ومن هذا نتج التسرى وتعدد الزوجات

وكما ان المرأة لم يكن لها عمل عند الامة العربية لانحصار المعيشة كلها في الغزو والدفاع عن القبيل كذلك

لم يكن لها عمل في العائلة لان التربية عندهم كانت قاصرة على تغذية جسم الطفل بالرضاعة والاكل حتى ينشأ رجلاً مقاتلاً لا عالماً فاضلاً

فلا عجب اذا رأينا في كلام العرب وشعرهم وقصصهم بل وفي مؤلفات فقهاهم وعلمائهم وفلاسفتهم ما يدل على احتقارهم للمرأة

هذا هو منشأ تولد صورة المرأة في عقول المسلمين وهي صورة حقيقية اذا نظر الى الماضي ولكنها مزورة اذا نظر الى الحال والمستقبل . ذلك لان المرأة المصرية اليوم لا تشابه المرأة العربية التي كانت تعيش من آلاف سنين لا في الظاهر ولا في الباطن . وتختلف عنها في الملبس والمأكل والمسكن وفي العادات والاخلاق والحاجات والضرورات . لان الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي هي موجودة فيها الآن تغيرت تغيراً كلياً عما كانت عليه في الماضي . وتبع هذا التغيير لوازم وحاجات كانت مجهولة عند نساء العرب

فالمرأة العربية كانت تكتفي من طعامها بخبز من شعير . ومن ملبسها بقميص من قطن ومن مسكنها بيت من شعر . وتحصيل ذلك وتدبيره لا يحتاج الى علم واسع وحذق كبير . والمرأة العربية عاشت جاهلة بالشؤون المعاشية لان عائلتها وقومها لم يكونوا محتاجين اليها في قوام حياتهم العائلية والاجتماعية . والمرأة العربية كانت مستعبدة لانها كانت في الحقيقة متاعاً يدخل في حوزة الرجل بالسلب او بعقد هو اقرب لابيع منه الى الزواج

اما الآن فنحن في عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضاً واستقرَّ النظام فيهم فلم تبقَ الحرب شغلاً شاغلاً لجميعهم ليدفع بعضهم غائلة بعض . واصبح الناس غير محتاجين الى الغزو في كسب ارزاقهم . فبعد ان كانت قيم الرجال تغلو وترخص وتعلو وتنحط على حسب غنائمهم في القتال وحسن بلائهم فيه وبعد ان كان الفائق في الشجاعة وقوة البأس هو صاحب السلطان الاعلى والضعفاء

كلهم تحت كنفه انقلب الحال . ولم يبقَ للقتال حاجة الا في احوال مخصوصة يتولاه فيها اناس معروفون . واقبل افراد الامة رجالاً ونساءً بعضهم على بعض يتنافسون في امور اخرى . فنهم المتنافسون في المجد بالعلم ومنهم المتسابقون اليه بالثروة وفيهم المجدون في طلابه بالصناعة والتجارة والزراعة . واتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة انسان مثل الرجل . زينتها الفطرة بموهبة العقل فحق لها ان تسمو اليوم الى ما يقرب من درجته ان لم تستطع ان تساويه فيها . ثم تبع هذه الحالة كثرة الحاجات واصبح المقصر في سعيه الساقط في عزمه القاعد في كسله وجهله مهدداً بالموت محفوفاً بخطر العدم . وفتح على الناس بذلك باب جهاد جديد . فاهل البلد الواحد يتزاحمون في طرق الكسب ويتدافعون في سبله بوسائل العمل وحيل العقل . وجميعهم يزاحم الاجنبي الذي سهل عليه مخالطتهم بسهولة المواصلة وتوفر اسباب الامن . وما هذا الجهاد بالهين السهل بل هو مما يحتاج الى اعمال

القوى العقلية والبدنية اكثر مما يحتاج اليه القراع بالسيوف والمراماة بالسهام

ولقد استدار الزمان على المرأة ورجع بها الى قانون الفطرة . فعرض لها من الحاجات ما لا يمكن معه ان تعيش مقصورة في بيتها فهي مضطرة رغماً عنها ان تدخل في ما دخل الرجال فيه وان تعمل لتكسب وتعيش وتعلو وتعلو فهي بحكم هذه الضرورة في اشد الحاجة الى تعلم ما يمكنها من بعض الغلبة في هذه المزاحمة العظيمه

وما تسمعه الآن من صياح النساء وعويلهنّ وشكواهنّ من الرجال لعدم القيام بالانفاق عليهنّ او اغتيال حقوقهنّ ومن احاديث تطوح الكثير منهنّ في مهاوي الرذيلة لسد بعض الحاجات يؤيد ما قلنا ويظهر لكل نظر صواب ما بيننا

وانا نسأل مجادلينا فيما نحن بصدده هل يمكنهم ان يقولوا ان لا حاجة للمرأة تدعوها الى معرفة وجوه الكسب وارتفاع المكانة او يقولوا انها في حاجة الى ذلك ولكن

وا أسفاه ليس في فطرتها ولا فيما وهب الله لها من القوى ما يهيئها لاخذ اهبتها في هذا الجهاد ؟

هذه المسئلة لا تحل ببعض كلمات مثل كون المرأة ضعيفة او قاصرة العقل . لان الضعيف والقوي وصاحب العقل الكبير وذو العقل الصغير والجاهل والعالم كلهم يستوون امام ضرورات الحياة . وانما الذي يفيد في فهم حقيقة هذه المسئلة وحلها هو ان يعرف اولاً هل يوجد نساء ليس لهنّ عائل يقوم بحاجاتهنّ او يوجد لهنّ عائل لكن كسبه لا يكفي لقضاء ما يحتجنَ اليه . ثم اذا كان يوجد نساء من هذا الصنف فما عددهنّ وهل هو كثير او قليل . ؟

والذي يمكننا الرجوع اليه في ذلك هو تعداد اهالي القطر المصري الذي حصل في سنة ١٨٩٧ وهو آخر احصاء جرى . جاء في هذا الاحصاء ان جملة النساء المصريات اللاتي يشتغلنَ بصنعة او حرفة هو ٦٣٧٣١ اي انه يوجد الآن في مجموع المصريات اثنتان في كل

مائة امرأة يشتغلنَ بصنعة . ولم يدخل في هذا الاحصاء نساء الارياف اللاتي يشتغلنَ بالزراعة ولا النساء الاجانب اللاتي بلغ عدد المحترفات منهنَّ بصنعة عشرين في المائة .

وغنيٌّ عن البيان ان هاته المحترفات هنَّ نساء لا عائل لهنَّ لما نعهدهُ من ان الرجال لا يسمحون لزوجاتهم ولا لبناتهم ان يحترفنَ بصناعة ما لم يكونوا انفسهم عاجزين عن كل كسب

واذا رجعنا الى مشاهداتنا نجد آن النساء اللاتي لا عائل لهنَّ يزدنَ عن هذا المقدار اضعافه لأن الاغلب منهنَّ يعيش عالةً على اقاربهنَّ ومنهنَّ من يستعمل لكسب العيش وسائل لا يعترف بها . واضيف على هذا الصنف أولئك الزوجات اللاتي لا يكفي كسب ازواجهنَّ لضرورات معاشهنَّ ومعيشة اولادهنَّ . فهنَّ مع ازواجهنَّ دائماً في نزاع وشقاق ثم تزدحم اقدامهنَّ في ساحات المحاكم الشرعية للمطالبة بالنفقة فاذا قدّر القاضي للزوجة قرشين في اليوم صاح الزوج هذا كثير . وعدد

هؤلاء النسوة لا ينقص عن مجموع ما سبقهنّ

اذا سلمنا ان عدد النساء المصريات اللاتي ليس لهنّ عائل لا يزيد عن اثنين في المائة من مجموع النساء المصريات أفلا ينبغي لهؤلاء النسوة اللاتي قضت عليهنّ ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال الاقوياء لكسب عيشهن ان يتهيأنَ الى النجاح قبل الدخول في معترك الحياة بالوسائل التي يستعد بها الرجال انفسهم ؛ وهل يكون من الحق والعدل ان يحرمنَ من التربيـة التي تأهلنّ للدفاع عن انفسهنّ ؛ وهل من مصلحة للرجال او لعموم الهيئة الاجتماعية من ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؛

نحن لا نجادل في ان الفطرة اعدت المرأة الى الاشتغال بالاعمال المنزلية وتربية الاولاد وانها معرّضة لعوارض طبيعية كالحمل والولادة والرضاع لا تسمح لها بمباشرة الاعمال التي تقوى عليها الرجال . بل نصرّح هنا ان احسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هي

ان تتزوج وتلد وتربي اولادها . هذه قضية بديهية لا تحتاج في تقريرها الى بحث طويل . وانما الخطأ في ان نبني على ذلك ان المرأة لا يلزمها ان تستعد بالتعليم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة اولادها ان كان لها اولاد صغار عند الحاجة

ذلك لانه يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق او بموت الزوج . ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره او عجزه او كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن اولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن عن تناول الاشغال الخارجة عن المنزل بحجة ان لهن رجال قائمين بمعاشهن او لأن عليهن واجبات عائلية او لوجود عوارض طبيعية تحول بينهن وبين العمل

نحن لا نقول للمرأة اهجري الزواج ولا تبغي النسل او اتركي زوجكِ واولادكِ في البيت وقضي اوقاتكِ في

الطرق وعيشي كما يعيش الرجال فانا نكرر القول باننا نود ان كل امرأة تكون زوجة وان كل زوجة تكون اماً . ولكن هذا لا ينسينا ان الواقع هو غير ما نتمنى . اذ الواقع ان عدداً عظيماً من النساء ليس لهن عائل ولا واجبات عائليـة

هذا القسم من النساء هو قليل عندنا اليوم بالنسبة للبلاد الغربية فاننا لو اخذنا آخر احصائية في فرانسا لوجدنا انه يوجد ٣,٦٢٢,١٧٠ من النسـاء غير متزوجات و ٢,٠٦٠,٧٧٨ ارامل و ٩٢٤٢٨٦ متزوجات وليس لهن اولاد . اي يوجد في فرانسا زيادة عن خمسة ملايين من النساء صالحات للعمل مضطرّات اليه بدون ان يكون في اعمالهن ضرر يلحق بعائلاتهن

ولكن مع مرور الزمن وتقدم المدنيـة في بلادنا سيزداد عدد النساء الخاليات عن الزواج وبدل ان يوجد اليوم اثنان في المائة من النساء المصريات يتعيشن بصنعة او حرفة سيوجد عن قريب اضعاف هذا العدد . ذلك

لأن الحوادث الاجتماعية خاضعة لقوانين طبيعية يسهل معها العلم بما سيكون من امرها في المستقبل

لهذا يمكننا ان نأكد ان عدد النساء المحترفات لا بد ان يزداد في كل سنة عن الاخرى لاننا سائرون في الطريق الذي سارت فيه اوروبا قبلنا

ولا خلاف في ان عدد الزواج في اوروبا هو اقل منه في الشرق . وسبب ذلك ان الواحد منهم لا يتزوج بالسهولة التي يتزوج بها الواحد منا . فان الاوروبي يطلب من الزوجة قريناً يرافقه طول حياته وصاحباً يشاركه في جميع اعماله وافكاره وعواطفه فهو يطلب لها جميع الصفات التي يبحث عنها الواحد منا اذا اراد ان يتخذ له صديقاً . فالعثور عليه يكون صعباً

وأضيف على ذلك سبب آخر . وهو ان الحالة الاقتصادية في البلاد المتمدنة لا تسمح للفرد ان يكون قادراً على كسب عيشه قبل بلوغه سن الثلاثين الاّ في النادر . لانه يصادف في طريقه مزاحمات عقلية وعمليه

ان يخرق الصفوف التي امامه . هذا ان ساعدهُ الحظ وحسن الاستعداد على نيل مركز في التجارة او الصناعة او الحرف الادبية . والكثير منهم يقضي حياته في البحث ولا يجد شيئاً

ومن الاحتياط عندهم ان لا يتزوج الشخص قبل ان يكون على ثقة من وسيلة للرزق يحصل بها ما يكفي لمعاشه ومعاش اولاده . لانهم يشعرون بما يجب عليهم لعائلتهم ولا يرضون ان يكونوا سبباً في شقاء ازواجهم واولادهم . فانما الجاهل هو الذي يحمله الطيش على التعجيل بالزواج ويستهين بما تفرضه عليه تلك الجامعة . ولا يعرف لاهله حقاً عليه

فنحن مساقون في هذا الطريق بقوة لا يستطيع احد مقاومتها . ويظهر لي ان الزواج عندنا قد بدأ في التناقص فاني اعرف كثيراً من الذكور والأناث تجاوزوا السن الذي يحصل فيه الزواج عادةً ولزمتهم العزوبة مختارين او مضطرين . ولكني لا ادري هل ذلك عام

او خاصّ ببعض المواضع . وانما يمكنني أحقق ان متوسط السن الذي يحصل فيه الزواج زاد عما كان عليه في الماضي . فهو الآن ما بين العشرين والثلاثين في الغالب وكان فيما مضى سن البلوغ . وكثيراً ما كان يحصل الزواج قبله

وليس يفيد شيئاً ان يصبح ارباب الاقلام عندنا ناقمين على ما وصلت اليه حالنا اليوم وما ستصل اليه على ممر الايام وان يستشهدوا بما وقعت فيه اوروبا من نقصان عدد الزواج فيها واحتراف النساء باشغال الرجال . ذلك لا يفيد لانه لا يمكن ان يترتب على هذه الشكوى اثر ما في مجرى الحوادث في العالم . ولو كانت الشكوى تكفي لتغيير الحال لكان الامر سهلاً

والحقيقة ان اهم عامل له أثر في حال الامة هي حالتها الاقتصادية . ومن الاسف ان هذه الحال الاقتصادية ليس في امكان احد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء

نعم يوجد في كل أمة متمدنة عدد من النساء الجأتهنّ الضرورة الى السعي والكد والاشتغال باعمال الرجال — اي مسترجلات — اذا شئت . وهنّ النساء اللاتي زهد فيهنّ الرجال فلم يرغب احد في زواجهنّ والارامل اللاتي توفي زوجهنّ والمطلقات اللاتي تركهنّ ازواجهنّ . هؤلاء النسوة لم يقترفنَ ذنباً على الهيئة الاجتماعية فما من واحدة منهنّ الاّ وكانت تتمنى ان تجد رفيقاً صالحاً يحبها وتحبهُ ويساعدها وتساعده . ما من واحدة منهنّ الاّ وفي قلبها اثر الحزن لانها لم تلد ولداً تشتغل بتربيته . ما من واحدة منهنّ الاّ وتبكي في وحدتها سوْ حظها وتأسف على ضياع الاماني التي قضت حياتها في انتظارها

ولكن ما الحيلة اذا كان نظام الوجود يقضي بان كثيراً من النساء يعشنَ في الوحدة والانفراد ويسعينَ ويعملنَ لكسب قوتهنّ وقوت اولادهنّ وبعض اقاربهن من القواعد والعاجزين عن الكسب ؟

يقول المعترضون انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة اعمال الرجال والاختلاط بهم كما انهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازماً لكسب عيشها لأن الضرورات تبيح المحظورات . وقد اتفق جميعهم على هذا الرأي حتى حضرة العالم العلاّمة (هكذا هو لقب نفسهُ على ظهر كتابهِ) الذي أنتدب عن فقهاء الازهر للرد على تحرير المرأة . فكلهم يرون ان منع المرأة من كشف وجهها ومن الخروج من بيتها ومزاولة اعمال الرجال والاختلاط بهم ومن التعليم الذي يؤهلها الى هذه الأعمال هو خاصٌ بغير الفقيرات من النساء اللاتي تلجأهنّ الضرورة الى السعي لتحصيل ارزاقهنّ

ويتبين من هذا انهم متفقون معنا في حالة الضرورة ولكنهم يخالفوننا في غيرها . فهم يرون ان الاباحة يلزم ان تكون خاصة لهذه الحالة فقط وبهؤلاء النسوة ونحن نرى انها يلزم ان تكون عامة شاملة لجميع النساء والاحوال ولو شاؤا ان يفهموا ما يقولون وان يقفوا على ما

يفضي اليه رأيهم هذا لوافقونا في رأينا وحكموا حكمنا .
لانهم يقولون ان المرأة تفارق الحجاب وتتناول من الاعمال ما يتناولهُ الرجال اذا مست الحاجة الى ذلك .
ولا يخفى ان كل نفس حيــة معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات . والعمل الذي تدفع اليه الضرورة وتحمل عليه الحاجة لا يكفي في القيام به على الوجه اللازم ان تتوجه المرأة اليه وتدخل فيه بل يلزم قبل الدخول فيه ان تكون نفسها مستعدة تمام الاستعداد لمباشرته والاتيان به على وجه يوصل الى المرغوب . وهذا الاستعداد لا يكون الاّ بالتربية والعلم والتمرن والممارسة واختبار الناس . فلو حرمت المرأة من التأهب لملاقاة الضرورات حتى وقعت فيها لم تستطع للخلاص منها سبيلاً وكان حرمانها من هذا التأهب عبارة عن تسليمها للهلاك

وياعجباً كيف نتوقع الخيبة للرجل منا اذا كان ناقص التربية قليل المعرفة عديم الاختبار ولا نتوقع تلك الخيبة للمرأة اذا اشتركت معه في هذه النقائص ؟

وحوادث الفقر والطلاق وموت الزوج والعزوبة. كلها حوادث جارية وتقع في كل آن . ولما كان الاطلاع على الغيب امراً غير ميسور للانسان وجب ان تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل ان تقع فيها

لهذا نرى ان من اهم ما يجب على الآباء ان يعدوا بناتهم لاستقبال هذه الحوادث بما يدفع شرها ويقي من ضررها ويمهد لهن سبيل الوصول الى حظ من السعادة في هذه الحياة

ثم نرى انه يجب على كل اب ان يعلم بنته بقدر ما يستطيع ونهاية ما يمكن وان يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية اولاده الذكور . فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها . وان لم تتزوج او تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الاسباب الكثيرة الوقوع امكنها ان تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها

وسواء نظرنا الى الفوائد المادية التي ينالها صاحب

العلم من علمه او نظرنا الى اللذة المعنوية التي يذوقها فالتعليم على كل حال مطلوب

بين يديّ الآن كتاب ألفهُ احد الكتاب الفرنساويين وهو پول دروزيه وسماه الحياة الاميريكية قال فيه عند الكلام على تربية البنات ما يأتي :

« رأيت في اميريكا الصبيان والبنات يذهبون الى »
« مدرسة واحدة ويجلسون على مكتبة واحدة بعضهم »
« بجانب بعض ويسمعون دروساً واحدة ويرتاضون »
« معاً . فاذا اتموا دروسهم استمرّ هذا الاختلاط حيث »
« ترى البنات في المعامل والمصانع يشتغلنَ ويستخدمنَ »
« في اللوكندات الكبيرة لمسك الدفاتر ويربينَ الاطفال »
« في المدارس الابتدائية ويطلبنَ العلم في مدارس الطب »
« وترى منهنّ قسيسات يخطبنَ في الطرق واعضاء في »
« الجمعيات الخيرية ورئيسات في المجالس البلدية وما »
« أشبه ذلك . اذا اردت ان تعرف ما هو سبب هذه »
« العادات الغريبة وما هو المقصود من تربية النساء »

« على هذه الطريقة وما هي الواجبات التي يتأهبنَ الى »
« اداءها بهذه التربية فعليك ان تتأمل في هذه المسئلة »
« لكي تقف على سرها. اذا فكرتَ فيها تعلم انه يوجد »
« تياران متعاكسان يقابلهما حالتان للمرأة مختلفتان »

« وبيان ذلك ان البنت ان بقيت عزبة تضطرّ »
« الى ان تجاهد في سبيل الحياة كالرجل الذي يناضلها »
« فاحسن تربية توافقها حينئذٍ هي تربية كتربية الرجال »
« اما اذا تزوجت فحمل المعاش يكون على زوجها وهي »
« تشتغل بادارة منزلها وتربية اولادها . ولكن من ذا »
« الذي يعلم مستقبل البنت وهي في السنة العاشرة من »
« عمرها ؛ وما الذي يعمله الآباء امام هذا المستقبل »
« المجهول ؛ رأى الاميركانيون ان من الفطنة ان »
« يعملوا كأن بناتهم لا يتزوجنَ وان يربوهنَّ كالذكور »
« من جهة التعليم والاستقلال في السير . فالأب الاميركي »
« يربي بنتهُ على ان تعتمد على نفسها لانه يجهل مستقبلها »
« فان صادفت زوجاً يريد ان يضع يده في يدها ويقطع »

« معها طريق الحياة كانت هذه التربية احسن ما يأهلها »
« للقيام بواجباتها العائلية . وان لم يوجد احد يرغب »
« الاقتران بها فقد خلص الاب من اللائمة حيث انه »
« تبصر في المستقبل وعمل كل ما يمكن ان يعمل ليعدها »
« للغلبة على ما تلاقيه امامها من الصعاب ومرارة الحياة »

ويوجد حرفتان اود ان تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا : الاولى صناعة تربية الاطفال وتعليمهم . هذه الصنعة هي احسن ما يمكن ان تتخذها امرأة تريد ان تكسب عيشها لأنها صنعة محترمة شريفة والمرأة اشد استعداداً لها من الرجل وادرى منه بطرق استمالتهم واكتساب محبتهم . وبلادنا اشد البلاد حاجة الى نساء يعرفنَ هذه الصناعة فانه لا يكاد يوجد عندنا امرأة يوثق بها في تربية الاولاد . والعائلات المصرية في احتياج الى عدد وافر من مربيات الاطفال حتى تستغني بهنَّ عن المربيات الاجانب . كذلك لا يوجد في مصر مدارس للبنات يتولى ادارتها والتعليم فيها مصريات . وهذا نقص

كبير في بلادنا حيث انا جميعاً مضطرون الآن الى تربية بناتنا في المدارس الاجنبية .

والحرفة الثانية هي صناعة الطب . كل رجل يعرف مقدار الصعوبة التي يكابدها عند ما تكون احدى النساء من اقاربه مريضة ويلح عليها ان تعرض نفسها على طبيب من الرجال خصوصاً اذا كان المرض من الامراض الخاصة بالنساء . فاذا وجد عدد من النساء يعرفنَ صناعة الطب فلا شك ان صناعتهنَّ تروج رواجاً عظيماً بما يجدنه من الحاجة اليهنَّ في البيوت المصرية . وهنا نقول ايضاً ان فن الطب هو من الفنون التي تلائم استعداد النساء الطبيعي . وما يشاهد الآن في المستشفيات العمومية وفي العائلات من الخدمات الجليلة التي تقوم بها النساء هي اعظم برهان على ان المرأة بما جبلت عليهِ من الرأفة والجلد والاعتناء الشديد صالحة لمثل ما يصلح لهُ الرجال من معالجة الامراض ان لم تكن اشد صلاحية لذلك منه

كذلك يمكن للمرأة ان تشتغل بجميع الاعمال

التي قوامها الترتيب والتنظيم ولا تحتاج الى قوة العضلات والاعصاب كالتجارة . فكم من بيوت تجارية ارتفعت بايدي النساء بعد ان كانت سقطت من ايدي الرجال . وكذلك يمكن للنساء مزاولة جميع الحرف الادبية

ان المرأة المصرية اذا احتاجت اليوم الى كسب معاشها بنفسها لا تجد عملاً تتناول منه ما تقتات به الا بعض الاعمال الشاقة السافلة كالخدمة في بعض البيوت او الجولان في الطرق لبيع السلع الزهيدة القيمة . فمنع النساء عن الاشتغال بما يشتغل به الرجال كأنه في الحقيقة تخصيص لهن بمثل هذه الاعمال الدنيئة التي لا ينال بها الا القليل التافه وحرمان لهن من الاعمال الشريفة التي تعود على اربابها بالمكاسب الوافرة

فهذه المنزلة المنحطة هي التي نريد استبدالها بارفع منها

يجب ان تربى المرأة على ان تكون لنفسها اولاً — لا لأن تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها

يجب ان تربى المرأة على ان تدخل في المجتمع الانساني وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيف ما شاء

يجب ان تربى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقاءها في نفسها لا في غيرها

بماذا نقابل رجلاً ينصحنا بقوله ربوا ابناءكم ليكونوا ازواجاً فقط ولا تعدوهم الاّ للازواج ؟ لا ريب انّا نقابله بالسخرية والاحتقار . لاننا نعلم ان الرجل لا بد له اولاً ان يكون انساناً مستعداً لأن يلاقي من المشاق والمصاعب ما يلاقيه الانسان وان ينال من السعادة ما يليق بالانسان ان يناله فمتى تعلم وصار قادراً على كسب عيشه وكان متجملاً بحسن الاخلاق كان بالطبع زوجاً صالحاً . فكيف نقبل نصيحة من يقول لنا اعدوا بناتكم لأن يكونوا فراشاً فقط ولا تعدوهنّ لغير ذلك من مقاصد الحياة وغاياتها ؟

نتج من كل ما تقدم ان للمرأة حقاً في ان تشتغل

بالاعمال التي تراها لازمة للقيام بمعاشها وان هذا الحق يستدعي الاعتراف لها بحق آخر وهو ان توجه تربيتها الى الطرق التي تؤهلها الى الانتفاع بجميع قواها وملكاتها

وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال باعمال الرجال وانما معناه انه يجب ان تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه

الواجب على المرأة لعائلتها

الى هنا كان كلامنا في التربية والاعمال التي لا بد منها لحفظ وجود المرأة على الوجه اللائق بها ونريد الآن ان نتكلم على الاعمال والتربية التي تلزم للمرأة لتكون نافعة في عائلتها

جميع الناس متفقون على ان قوام العائلة ونظامها في يد المرأة ولكن ليس كل الناس سواء في فهم هذه القضية . فالجمهور الاعظم من الناس يفهمون ان معنى ذلك هو ان تقوم المرأة بخدمة زوجها واولادها ان كانت العائلة فقيرة او تدير اعمال الخدمة الذين يؤدون هذه الاعمال باوامر تصدرها اليهم ومراقبتها لهم ان كانت العائلة غنية

الى هذا الحد يقف فكرهم

هكذا بخسنا المرأة حقها في جميع الاحوال فبعد ان

حرمناها حريتها وافقدناها استعدادها للقيام بضرورات حياتها انتهى بنا الحال الى ان ضيقنا دائرة اعمالها حتى في العائلة . وهذا اقوى دليل على ان كل ما يختص بارتقاء المرأة يرتبط بعضه ببعض فالمرأة المهذبة الحرة هي التي يمكن ان يكون لها نفوذاً عظيماً في عائلتها والمرأة الجاهلة المستعبدة لا يمكن ان يكون لها من النفوذ في عائلتها اكثر مما يكون لرئيسة الخدم في البيت .

ظن المسلمون ان تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع في تربيتها يفضي الى اهمالها في القيام بما يجب عليها في الشؤون العائلية فوضعوا بينها وبين العالم الخارجي حجاباً تاماً حتى لا يشغلها شيء عن معاشرة زوجها وادارة منزلها وتربية اولادها ولكن انظر الى النتيجة تجد انها خلاف ما قصدوه حيث ان المرأة المصرية لا تعرف كيف تعاشر زوجها ولا يمكنها ان تشتغل بادارة بيتها ولا تصلح لأن تربي اولادها

ذلك لأن جميع اعمال الانسان مهما اختلفت

وتنوعت هي صادرة عن اصل واحد وهو علمه واحساسه فان كان هذا الاصل راقياً كان اثره في كل شيء كبيراً نافعاً حميداً وان كان منحطاً كان اثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود

فالوظيفة الحقيرة التي تأديها المرأة المصرية عندنا اليوم في العائلة هي مطابقة لمنزلتها من ذلك الاصل المتقدم ذكره . ولكن عجز نساؤنا الآن عن القيام بالاعمال التي ينبغي ان تناط بهن لا يحملنا على اليأس من ارتقائهن ولا على الحكم باستحالة بلوغهن الى الحد الذي يرجى لهن

فعلى المرأة واجبات غير ما يظن الجمهور عندنا واهم هذه الواجبات هي تربية الاولاد

اذا اردت ان تعرف مقدار جهل الامهات عندنا بابسط مبادئ التربية انظر الى احصائيات وفيات الاطفال عندنا واحصائيات تلك الوفيات في مدينة مثل لوندره تجد ان عدد الموتى من اطفالنا يزيد عن ضعف عدد الموتى من اطفال مدينة لوندره . وقد اطلعت على

احصائية مصلحة عموم الصحة التي نشرت في هذا العام فوجدت ان عدد المتوفين بين الاطفال الذين لم يتجاوز عمرهم خمس سنين هو في مدينة القاهرة ١٤٥ في الألف ويقابل ذلك في مدينة لوندره ٦٨ في الالف

فاذا كانت صحة اولادنا ومرضهم وحياتهم وموتهم متعلق بالطريقة التي يتبعها النساء في تربيتهم افلا يكون من ضعف العقل وسخافة الرأي ان نكل اولئك الاولاد الى ما يقترحه الجهال ونتركهم الى خرافات المراضع ونصائح العجائز تتصرف فيهم كيف تشاء

ان الامهات الجاهلات يقتلنَ في كل سنة من الاطفال ما يربو على عدد القتلى في اعظم الحروب وكثير منهنَّ يجلبنَ على اولادهنَّ امراضاً وعاهات مزمنة تصير بها الحياة حملاً ثقيلاً عليهم طول عمرهم. وليس لهذا البلاء سبب في الاغلب سوى جهل الامهات بقوانين الصحة. لو كانت ام الطفل تعرف ان كل ما يتعلق بتغذية الطفل ومسكنه وملبسه ونومه ولعبه له اثر على جسمه لامكنها

ان تتخذ له وقاية من العلل بقدر معارفها الصحية . ولو علمت كل ام ان اغلب الامراض التي تنهك جسم ولدها لا تصيبه من غير سبب وانها المسئولة عن صحته ومرضه لما تساهلت في وقايته من كل ما من شأنه ان يضر ببدنه ولكن كيف تصل الى معرفة ذلك مع جهلها الذي يخيل لها ان المسببات تقع بلا اسباب او تحصل باسباب خارقة للعادة ؟

لا ينبغي هنا ان اشرح بالتفصيل كل ما يليق ان يعرفه القراء في هذا الموضوع وانما نقول بالاجمال ان التربية الجسمية للولد وحدها تستدعي معارف كثيرة اغلبها يتعلق بقوانين الصحة وان معرفة هذه القوانين تحتاج الى مقدار عظيم من معارف اخرى لا بد منه ليتيسر فهمها

فعلى الام ان تعرف افضل الطرق لتغذية الاطفال لان الانتظام في نمو الجسم يرتبط دائماً بانتظام التغذية . وجودة الانسجة وخصوصاً النسيج المخي تتعلق بجودة

التغذية . حتى قال بعض علماء الطب ان الامم التي تفضل غيرها في التغذية تفوق سواها في القوة وتتغلب على غيرها من الامم

وعلى الام ان تعرف كيف تقي جسم ولدها من اعراض الحر والبرد وما هو الماء الذي ينبغي استعماله في نظافة جسمه من حار او فاتر او بارد . وعليها ان تعرف ان للهواء والشمس اثراً حميداً في الصحة فلا تحرمه من التمتع بهما . وهكذا يقال في الاشياء الاخرى كالنوم واللعب وما اشبه ذلك

ثم يجب عليها من جهة اخرى ان تكون على علم تام بنفس الطفل ووظائف قواه العقلية والادبية والا كانت اول عامل في فساد اخلاق ولدها

انظر الى ما تعمله امرأة مصرية مع ولدها تجده مما لا يصدر عن انسان عاقل يقدر لعمله نتيجة . مثال ذلك انها تمنعه من اللعب كي لا يشوش عليها وهي لا تدري انها بمنعها له عن اللعب تقف في سبيل نموه . واذا

ارادت ان تأدبه هددته بما لا تستطيع او بما لا تريد ان تنفذه او خوّفته بوهومات تثير في ذهنه خيالات ربما لازمته مدة حياته . واذا ارادت ان تكافأه وعدته بوعود لا تفي بها . فتكون له بذلك قدوة في الكذب وتحدث في نفسه ضعف الثقة بالقول . وهي في اغلب حالاتها تظهر الغضب عليه وتنهره بالصوت الشديد وتزعجه بحركات التهديد . كأنها تريد ان تثبت له باقوى الدلائل انها عاجزة عن ضبط نفسها وسياسة قواها . وربما كان السبب الذي اثار غضبها لا يستحق من ذلك كله شيئاً . فاذا رأت منه انفعالاً مما صدر منها لم تلبث ان تضمه وتقبله وتظهر له غاية الندم على ما صدر منها . والولد المسكين لا يدري كيف استحق غضبها اولاً ثم رضاها ثانياً

هذه العيوب ليست خاصة فقط بالامهات بل نجد كثيراً من الآباء عندنا لجهلهم بطبيعة النفس الانسانية يستعملون في تربية اولادهم طرقاً لا تقل في الشناعة

والسخافة عما يستعمله النساء . ومن اقبح ما يصنعه كثير من الآباء مع ابنائهم ان يشتم ويسب الوالد ولده بالفاظ لا يدري الطفل معناها فيجيبه الولد بمثلها فاذا احسن الاجابة ضحك ابوه مسروراً واستبشر بنجابة ولده . وكذلك ترى الواحد منهم يأمر ولده امراً لا داعي له فيخالفه الطفل فينقضّ عليه كالوحش فاقد الشعور ويضربه في اي مكان يصادفه من جسمه . ولم يكن ذلك منه الا لانه يرى في عدم طاعة ولده اخلالاً بسلطته وامتهاناً لعظمته

ولو كان هذا الاب يعقل ما يفعل وعلم ان كل ما يُعوَّد عليهِ الطفل في نشئته يحدث في نفسه أثراً يكون مبدأً لملكة راسخة فيها لما عوده على ما لا يحسن ان يرادُ منه في كبره . ولو علم ان المقصود من التربية ليس ان يتعود الطفل على ان يطيع كل امر يصدر اليهِ وانما الغرض منها ان يتعود على ان يحكم نفسه لاجتناب الامر والتهديد والضرب . فان هذه الوسائل لا تهيأ الطفل الى ان يحكم

نفسه وانما يتمرن الطفل على ان يحكم نفسه اذا اجتهد ابواه في اقناعه وتنبيه عقله الى عواقب افعاله حتى يتولد في نفسه اعتقاد ثابت بان ما يصيبه من خير او شر فهو من كسبه

افضل طريق للتربية يؤدي الى هذه الغاية (ان يحكم الشخص نفسه) هي ان يترك الطفل وميله يعمل العمل حسب ما يسوقه اليه خاطره ولا يتداخل المربي الا ببيان ما ينتج عن هذه الاعمال بصورة نصيحة وارشاد. فاذا لج الصبي في مخالفة النصيحة تركه حتى يقع في عاقبة عمله لكن مع المراقبة الدقيقة كي لا يكون ضرر العمل شديداً وانما يسوغ الردع والمنع في الاحوال النادرة التي يعرض الصبي نفسه فيها للخطر

بهذه الطريقة يستعد الطفل الى ان يكون رجلاً يعتمد على نفسه في الوقت الذي لا يجد بجانبه احداً يدافع عنه ويحافظ عليه

يمكني ان اقرر بوجه الاجمال حقيقة اود ان يطلع

عليها كل أب وأم وهي ان جميع العيوب التي تشاهد عند الاطفال مثل الكذب والخوف والكسل والحمق هي ناشئة من جهل ابويه بقواعد التربية . وان من السهل ازالة هذه العيوب بالوسائل الادبية . وقد يتوصل لازالتها بالوسائط الطبية

اذا كانت وقاية الطفل من الامراض وتطهيره من العيوب مما يحتاج الى معلومات كثيرة كما ذكرنا فالوقوف على غرائز الطفل الطيبة وغرس الصفات الحميدة في نفسه يحتاج الى معارف ادق ومعلومات اوفر

١ يظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم ان لا شيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى علم اوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلأنها تحتاج الى جميع العلوم التي توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسماني والروحاني . واما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما

يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك اني اذهب الى ان كل أم يجب عليها ان تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن اقول ان جميع الامهات يجب عليهنّ ان يعرفنَ كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهنّ باصول تلك العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية اولادها

يرى القراء اني اهملت شأن الآباء عند الكلام على التربية . وليس ذلك من باب السهو بل لأن مدار التربية كلها على الام . فالولد ذكراً كان او انثى من وقت ولادته الى سن المراهقة لا يعرف قدوة له سوى والدته ولا يعاشر غيرها ولا يرد على حواسه الاّ الصوَر التي تعرضهُ لها . فنفسه صحيفة بيضاء وامه تنقشها كما تشاء . ويتم نقش الصحيفة وتكون كتاباً مسطوراً عند ما يبلغ الطفل سن الرابع عشرة كما قال الفونس دوريه وليس في امكان الناشيء بعد ذلك ان يضيف على ما رسم في نفسه او

ينقص منه الاَّ شيئاً قليلاً لا يترتب عليه تغيير الكتاب

هذا هو السر في احترام الغربيين نساءهم وتقديسهم امهاتهم . فهم يعلمون ان كل ما هم عليه من الصفات الحسنة والاخلاق الطيبة هو من فضل امهاتهم اللاتي اودعنَ فيهم بضعة من ارواحهنَّ وهي خير بضعة كانت عندهنَّ . ان كان بين الغربيين من يشعر من نفسه بحب الحق والميل الى جميل الفعال ويقدر شرف النفس قدره . ويرأف بالفقير ويتألم لأنين المريض ويرحم الحيوان . ان كان يوجد بينهم من جعل الترتيب والنظام قاعدة عمله والجد والاجتهاد مشتهى نفسه . ان كان فيهم من يجد في نفسه احتراماً لدينه وتكريماً لشأن وطنه وشوقاً الى طلب الكمال في كل شيء فليس ذلك لانهُ قرأ في الكتب او تعلم في المدرسة ان هذه الصفات ممدوحة — ولو كان الادب يعلم بالحفظ لكان اصلاح العالم من اسهل الامور — وانما كان ذلك لان والدته ارادت ان يكون على هذه الصفات . فكانت ما لا يوصف من

المتاعب لطبعها في نفسه وتثبيتها في طبعه

فهي التي كانت تحرص على ان لا يقع تحت حواسه صورة قبيحـة وهي التي كانت تقدم اليـه صور الاشياء الجميلة على اشكالها المختلفة . وهي التي كانت تعوده على العادات النافعـة شيئاً فشيئاً حتى رسخت فيه كما ترسخ جذور النباتات في الارض

هذه الوظيفة التي تقوم بها الامهات في تلك البلاد هي اهم وانفع ما يعمله انسان حيّ على وجه الارض . اذ لا يوجد شيء اهم ولا انفع من تهذيب نفوس الاطفال واعدادهم لان يكونوا رجالاً صالحين

من هذا يتبين ان عمل المرأة في الهيئة الاجتماعية هو تكوين اخلاق الامة . تلك الاخلاق التي أثرهـا في الاجتماع من حيث ارتقاء الامم وانحطاطها يفوق آثار النظامات والقوانين والديانات

لهذا لا يوجد بين الغربيين من يجهل مقام المرأة في الوجود الاجتماعي وشأنها في العائلة . ولا بأس من ان

نورد هنا شيئاً من كلام بعض فلاسفتهم لنبين للقراء منزلة النساء في رأيهم

قال سيملس « للمرأة في تهذيب النوع الانساني اكثر مما لاي استاذ فيه وعندي منزلة الرجل في النوع منزلة المخ من البدن ومنزلة المرأة منه منزلة القلب »

وقال شيلر « كلما وجد رجل وصل بعمله الى غايات المجد وجدت بجانبه امرأة محبوبة »

وقال روسو « يكون الرجال كما تريد النساء فاذا أردت ان تجعل الرجال من ذوي الهمة والفضيلة فعلم النساء الهمة والفضيلة »

وقال فناون « ان الواجبات التي تطالب بها النساء هي اساس الحياة الانسانية فالمرأة تدير جميع شؤون العائلة وبهذا العمل يكون لها اعظم نصيب في اصلاح الاخلاق او افسادها . ليست الامة صورة تقوم بنفسها كما يتخيل وانما هي مجموع جميع العائلات وما من احد يمكنه ان يهذب العائلة سوى المرأة »

وقال لامارتين « اذا قرأت المرأة كتاباً فكانما قرأه زوجها واولادها »

وامثال هذه الحكم مما نطق به العلماء والفلاسفة وما ورد في مؤلفاتهم لبيان ما للمرأة من الاثر في اصلاح اخلاق الامم بلغ من الكثرة حداً بحيث لا تمكن الاحاطة به

ومن الغريب ان الكثير من شباننا الذين لهم المام باللغات الاجنبية والذين لا بد ان يكونوا قد اطلعوا على بعض هذه المؤلفات يرون اني بالغت في اعلاء شأن المرأة وفي تعظيم وظيفتها بل كان من امر بعضهم ان احتقر رأينا وعده من سقط المتاع الذي لا يليق بان ينظر فيه . وكأن العالم الازهري الذي رد على كتاب تحرير المرأة قد عبر عن افكارهم عند قوله :

« ما سمعنا في تاريخ من التواريخ ولا في سفر »
« من الاسفار ولا في خبر من الاخبار ان أمة من »
« الامم او دولة من الدول تقدمت بنسائها وارتفع »

« شأنها بأناثها . وهذه الدول الاوروباوية قد ارتفعت »
« في هذه الايام واشتهرت بالعلوم والمعارف والحرف »
« والصنائع واختراع الامور العظيمة التي عم نفعها فاي »
« شيء من هذه العلوم والمعارف واي امرٍ من مخترعات »
« الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة من النساء ؟ »

والذي يقرأ هذه السطور يحق له ان يظن ان هذا العالم الازهري وامثاله لم يطلعوا على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الاسفار ولا خبر من الاخبار

فالنساء اللاتي خلد التاريخ ذكرهنَّ لشهرتهنَّ بالعلوم والمعارف او بالاعمال العظيمة لسنَ بذي العدد القليل ويوجد مؤلفات ضخمة تشتمل على تراجم حياتهنَّ وليس في امكاننا ان نأتي هنا على ذكر اعمال بعض من اشتهر من النساء في التاريخ وربما تسمح لنا الفرصة بوضع كتاب نخصصه لذلك وانما يمكننا ان نؤكد هنا انهُ لا يوجد علم من العلوم ولا فنّ من الفنون الا وقد برهنت المرأة فيه على انها مستعدة الى ان تصل الى

اعلا مراتب الكمال الانساني

واني استلفت العالم الازهري خصوصاً الى سلف أمته الصالح ليعلم ان تاريخ دينه لم يخلو من ذكر النساء اللاتي كان لهنّ اجمل الاثر فيه

على ان الامر لا يحتاج تحقيقه الى التاريخ فقد وجد في القرن الذي نحن فيه كثير من النساء اللاتي ارتفع شأنهنّ وذاع ذكرهنّ في جميع الممالك المتمدنة

هذه مارية متشل اكتشفت نجماً ذا ذنب سمي باسمها وعينت مديرة لرصدخانة في اميريكا ومعلمة لعلم الفلك ولها مؤلفات كثيرة في هذا العلم

وكارولين هرشل اكتشفت سبعة نجوم فمنحها مجمع علمي لوندرا المدالية الذهبية

وتريز دوباڤير لها مؤلفات عظيمة في الجغرافيا وفي علم طبقات الارض وكانت عضواً في المجمع العلمي بمدينة منيخ

وصوفي جرمين لها اختراعات جليلة في العلوم الطبيعية

وكل اهل العلم يعلمون ان المركيزة دوشاتليه هي التي نشرت مذهب نوتون في فرانسا وكلمنس رويه هي التي نشرت مذهب داروين ومادام استيل هي أول من عرف المانيا لاوروبا وكذلك مادام تارنوسكي هي التي نشرت مذهب لمبروزو في البلاد الروسية

اما عدد الفلاسفة والادباء من النساء اللاتي نشأنَ في هذا القرن والقرن الذي سبق لا يمكن حصرهُ في مثل هذا الكتاب ولكني لا ارى بدّاً من ذكر اثنتين من بينهنّ لم يسبقهنّ رجل في فن الكتابة وهما مادام لا فايت وجورج سند

على ان الارتباط الذي ادعيناه بين تقدم الامم وارتقاء حال النساء لم نقصد به ان المرأة تفيد الامة مباشرة باختراعاتها العلمية ومذاهبها الفلسفية وانما نعني به خاصة ما لها من العمل في اصلاح اخلاق العائلة ثم الامة على الوجه الذي بيناه

وبعبارة أخرى نقول ان ظهور رجل عالم او حكيم

فاضل في امة يعد من الحوادث التي يشترك في احداثها سببان : الاول استعداده بالوراثة لما ظهر فيه والثاني تربيته التي ساعدت على نمو هذا الاستعداد فيه . بحيث لو فقد احد هذين السببين امتنع احتمال وجود هذا الرجل العالم او الفاضل . . من هذا يتبين ان شخصية الانسان الادبية تتكون من عاملين عامل طبيعي وعامل صناعي . وليس في استطاعتنا ان نأثر في الاول ولنا على الثاني سلطة واسعة حيث انه يمكننا بالتربية الاولى ان نمي غريزة الطفل ان كانت غريزته صالحة ونكملها ونزيدها حسناً . ويمكننا ان نضعف من أثرها ان كانت بضد ذلك . نعم ان لهذه السلطة الثانية حداً تنتهي اليه ولكن سعة دائرتها تمكننا من الانتفاع بها انتفاعاً عظيماً اذا عرفنا كيف نتصرف فيها واهتدينا الى طرق التربية الصحيحة

فهذه التربية الاولى -- وزمامها في يد المرأة — هي التي اكسبتها ذلك المقام الرفيع الذي لا يعلوه مقام في الهيئة الاجتماعية

وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الاطفال بل المشاهد بالعيان ان المرأة تأثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في اعماله وأعدت له اسباب الراحة والاطمأنان ليتفرغ لاشغاله . وكم من امرأة شاركت زوجها او اخاها او والدها في متاعبه . وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوّت عزيمته في حالة اليأس والقنوط . وكم رجل طلب المجد ومعالي الامور طمعاً في ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب

وضع استوارت ميل في صدر كتابه المسمى الحرية الذي طبعه بعد وفاة زوجته العبارة الآتية :

« اني اهدي هذا الكتاب الى الروح التي الهمتني »
« احسن ما وضعته فيه من الافكار الى صديقتي وزوجتي »
« التي كان غرامها بالحق والعدل اعظم ناصر لي والتي »
« كان استحسانها من اكبر المكافئات التي ارجو نيلها »
« على عملي . كان لها في جميع ما كتبته الى الآن ولها »

« في هذا الكتاب حصة من العمل لا تنقص عن »
« حصتي فيه . واكبر اسفي ان هذا الكتاب طبع بالحالة »
« التي هو عليها الآن قبل ان تعيد النظر فيه . ولو كان »
« في استطاعة قلمي ان يعبر عن نصف ما دُفن معها »
« من الافكار العالية والوجدان السامي لأنتفع العالم به »
« اكثر مما ينتفع بجميع ما اكتبه صادراً عن فكري »
« ووجداني بدون مشورة عقلها الفريد »

وكانت زوجة پاستور الشهير مشاركة له في جميع مباحثه العلمية وبنت لمبروزو تشتغل الى الآن مع والدها ومن هذا القبيل ان لمارك الشهير فقد بصره فلم يجد له معيناً على معيشته الا ابنته فكانت تلقي دروساً بالاجرة وتمد والدها بما تكسب من دروسها ثم انها كانت تحثه على اتمام بحثه العلمي وتكتب ما يمليه عليها حتى صار بمعونتها من اشهر علماء التاريخ الطبيعي

هذه الامثلة وغيرها مما يطول شرحه تدلنا على ان المرأة المهذبة يمكنها فضلاً عن تربية اولادها ان تعمل

كثيراً من الاعمال لمصلحة الرجال وسعادتهم . واي مصلحة للرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار في الاقامة والسفر في الصحة والمرض في السرآء والضرآء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجدُّ في منفعتها كما تجدُّ في منفعة زوجها واولادها ؟

وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يبهها حياته وتشخص الكمال بصداقتها امام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بفاضل الاعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته وتذيب همومه ؟

هذه الحياة التي لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من اعظم الينابيع للاعمال العظيمة . واقول ولا اتردد

في ما اقول اذا لم تبلغ رقة الاحساس عندنا الى حدّ يرتبط الرجال فيه مع النساء على نحو ما ذكرنا واستمرّ الرجال على اهمال النساء وتركهنّ في هذه الحالة الساقطة التي يتألم الكل من آثارها وهم لا يشعرون ولم يبادروا باعداد المرأة بالتربية الى ان تكون رفيقة مساوية للرجل وعشيرة عارفة بادارة بيتها وصديقة تفدي زوجها باعزّ ما لديها وأُمّاً محيطة بما يجب عليها لاولادها عارفة بطرق تربيتهم فكل ما فعلناه الى الآن وكل ما نفعله في المستقبل لترقية شأن أمتنا يضيع هباءً منثوراً

هذا هو الحق الذي انتهينا اليه عند بحثنا عن اسباب تأخر الامم الشرقية عموماً والاسلامية خصوصاً

هذا الرأي الذي عرضناهُ على القراء اولاً نعرضهُ عليهم الآن مرّة ثانية . وكل ما نرجوه منهم هو ان « لا يضربوا به عرض الحائط » كما اشار عليهم كثير من اصحاب الافكار والكتاب الذين طعن اغلبهم في كتاب تحرير المرأة قبل ان يقرأهُ

لا خلاف في ان الامم الاسلامية في حالة ضعف شديد تستدعي المبادرة الى علاجها . فيتعين علينا ان نشخص هذا الداء بمعرفة اسبابه اولاً ثم نبحث عن دوائه كما يفعل كل طبيب يهتم بعلاج مريض . فما هي اسباب الداء ؟

اسبابه تنحصر اما في الاقليم او في الدين او في العائلة

اما الاقليم فلا يصح ان يكون سبب الداء . لانه من المعلوم ان الأمة المصرية من اقدم الامم ويعترف لها المؤرخون بالسبق في ابتكار كثير من العلوم والصنائع التي انتقلت منها الى اليونان ثم الى الرومان ثم الى العرب ثم الى اوروبا . وظهر فيها اول دين كبير في العالم وتمتعت مدة قرون بمدنية مشهورة لا تزال آثارها مشهودة الى الآن وستبقى خالدة في ما لا يزال . وحكمت نفسها ودبرت أمورها مدة اجيال بل اتى عليها زمن تغلبت فيه على ما جاورها وبعد عنها من الامم العظيمة وقهرتها واخضعتها لحكمها . ثم بعد فقد استقلالها حافظت على

وجودها وهيئتها رغماً عما طرأ عليها من التقلبات والمظالم والمصائب التي توالت عليها . وهذا يدل على انها وهبت في طبيعتها حياة قوية وانها مستعدة للمقاومة في المزاحمة مع الامم الاخرى . فاذا كان الاقليم لم يعق الامة المصرية عن اتيانها باعظم الاعمال ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون فلماذا يصير مانعاً لها من الترقي في هذه الايام التي قد تلطفت فيها بلا ريب درجة حرارة الاقليم ؟

على انه لم يثبت بادلة صحيحة يسندها العلم ان الحرارة تأثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً . وغاية ما ينشأ عن اختلاف الاقليم تفاوت في الامزجة والاخلاق بين الامم فمن المشاهد ان سكان الشرق يمتازون بالذكاء وسرعة الفهم وقوة الذاكرة وهذه الصفات النفيسة تعوضهم ما قد ينقصهم من الجلد والمثابرة في العمل

وفي الشرق اقاليم باردة وسكانها ليسوا اقل انحطاطاً في المدنية من سكان الاقاليم الحارة

واما نسبة تأخر المسلمين في المدنية الى الدين

الاسلامي فهو خطأ محض . من ذا الذي يقول ان الدين الاسلامي الذي يخاطب العقل ويحث على العمل والسعي يكون هو المانع من ترقي المسلمين وقد برهن المسلمون ان دينهم عامل من اقوى العوامل للترقي في المدنية ولا يجوز بعد سطوع هذا البرهان التاريخي ان يرتاب احد في هذه المسئلة . نعم ان الدين الاسلامي الصحيح قد تحوّل اليوم عن أصوله واستتر تحت حجب من البدع ووقف نموه وانقطع ارتقاءه من عدة قرون وظهر لهذا الانحطاط الديني أثر عظيم في احوال المسلمين ولكن هذا الانحطاط الذي ينسب اليه بعض الكتاب الغربيين تأخر المسلمين في المدنية يحتاج نفسه الى سبب يُرد هو اليه فهو سبب ثانوي لا اولي

وعلى هذا فليس ما نراه في احوال المسلمين ناشئاً عن السببين المذكورين فان أحدهما لا تأثير له بالمرة والثاني يعد من الاسباب الثانوية . بقي عندنا السبب الثالث فهو الذي ينبغي ان تنسب اليه هذه الحال التي نشكو منها .

فانحطاط المسلم كانحطاط الهندي والصيني وجميع سكان الشرق ما عدا اليابان ناشئ من حالة العائلة في هذه الجمعيات

وذلك ان العائلة هي اول شيء يقع تحت حواس الانسان في اول نشأته وهي الشيء الثابت المستمرّ الذي يراه دائماً . فاذا رأى الطفل فيها مثال الترتيب والعمل ورفعة النفس ورقة العواطف تعلقت نفسه بهذه الخلال وبهذا التعلق يخطو الخطوة الاولى في سبيل ارتقائه حتى اذا صار رجلاً وجد من حاله الشخصي ما يساعده على هذا الارتقاء

فالارتقاء حينئذٍ له دوران الاول دور اعدادي يقطعه الانسان في مدة طفوليته وصباه وفيه ترتسم في نفس الطفل صفات الترتيب والتنظيم وينشأ فيه الميل الى الفعال الجميلة وتتوجه نفسه الى حب الكمال وتتعود فيه آلات الجسم على النشاط والحركة . والثاني دور عملي يقطعه الانسان من سن الرجولية الى آخر العمر

وفيه تخرج هذه الصفات من حالة الكمون الى الظهور في العمل

فان اهمل الاعداد في الدور الاول استحال صعود الشخص في درجات الارتقاء . ومهما حفظ بعد ذلك من العلوم في المدارس ومهما كانت التعاليم الادبية او الدينية التي تلقى عليه فهو يعيش كالطائر الذي قُصَّ جناحاهُ كلما همَّ ان يطير سقط . ومتى تحقق بالتجربة من عجزه استسلم الى حظهِ ورضي بهِ وانتهى الحال الى ان يفضله على كل شيء سواه

ذلك لان التعليم سواء كان دينياً أو علمياً لا يمكن ان يكون له اثر نافع الا اذا وجد من النفس عوناً على النجاح كما ان البذرة مهما كانت جيدة لا تنبت الا في الارض الصالحة لنموّها

يقضي اولادنا الآن اوقاتهم في تعلم القراءة والكتابة واللغات الاجنبية ومطالعة العلوم سنين ثم ينتقلون الى علوم اخرى اعلا وارفع من تلك فاذا انتهت مدة الدراسة

ودخلوا في ميدان الحياة العمومية انتظرنا منهم ان يكونوا بيننا رجالاً ذوي احساس شريف وعواطف كريمة واخلاق حسنة وهمم عالية رجالاً يشعرون ويعملون ورجونا منهم ان نجني ثمار هذا التعليم الذي بذل في سبيله النفيس من الوقت والمال . ولكن وا اسفاه نرى آمالنا فيهم خائبة . نرى لهؤلاء الشبان المتعلمين قلوباً يابسة وهمماً صغيرة وعزائم ضئيلة . اما العواطف فهي بالتقريب فيهم معدومة . فلا يروق لاعينهم منظر جميل كما لا ينفرهم مشهد قبيح ولا يعطفهم حنو ولا تبكيهم مرحمة ولا يحترمون كبيراً ولا يستصغرون صغيراً ولا تحركهم منفعة الى عمل مهما عظم نفعه

وليس لذلك من سبب سوى أن التربية لم تتناول وجدانهم في أول السن . هذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل لا يظهره ولا يقويه ولا ينميه الا التربية البيتية . ولا عامل لها في البيت الا الأم . فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل وتغرس في

نفسه الاخلاق الجميلة وتنفث فيها روح العواطف الكريمة ·
واشد من هذا كله اثراً في نفسه ظهورها في عينيه
متحلية بهذه الصفات فيقلدها من غير فكر ثم يعتاد على
ذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير هذه الصفات حاجات لنفسه
لا يمكن أن تنسلخ عنها .

ولا يكون لنفسه شيء من ذلك اذا قضى زمن
صباه ولم ترد عليه صورة من هذه الصور ولم ينطبع في
روحه مثال من هذه الامثلة · فلو ادركها بعد ذلك بالتعليم
كانت محفوظات في ذهنه لا ينفذ منها شيء الى باطن
نفسه · فلا يحدث لهُ منها شعور صحيح يكون داعية للعمل
وحاثًّا عليه

من هذا ترى شعراءنا ينمقون القوافي في وصف
ما يكابده العاشق من مرارة العشق وآلامه وهم لا يعشقون ·
وخطباءنا يلقون على اسماع غيرهم احسن المقالات في حب
الوطن والحث على القيام بالواجبات الوطنية ولا يأتي قائل
منهم بشيء يبرهن بهِ على انهُ شاعر بما يقول وترى ان

اهل الدين الذين وقفوا حياتهم على خدمته أقل الناس شعوراً بالاحساس الديني الحقيقي . وترانا جميعاً منصرفون عن كل شيء ونحن نطلب كل شيء :

بينما كنت اكتب هذه السطور اطلعت في جريدة المؤيد على رسالة لحضرة الفاضل ابراهيم بك الهلباوي حررها وهو على ظهر المركب التي سافر فيها في هذا العام الى اوروبا . وقد اعجبني من هذه الرسالة المفيدة أمر أخصه بالذكر وهو توخي كاتبها الصدق في القول . والذي دعاني للكلام عليها هنا هو ان حضرة ابراهيم بك الهلباوي شرح لنا ما كان يجده من نفسه ويتردد في صدره عند ما مر على جزيرة كريد فقال :

« هذه اول مرة انكشفت فيها لعيني هذه الجزيرة »
« بعد انسلاخها من حكم الدولة واعطاء اوروبا أياها »
« هدية لثاني انجال ملك اليونان . وقد حاولت حال »
« المرور بها ان اتذكر بحسرة وجزع الحوادث التي »
« سبقت أو اقترنت أو نتجت عن هذا التغيير من قتل »

« وسفك دماء مسلمي هـذه الجزيرة وما نالهم من »
« الذل والمظالم ثم مصادرة من بقي منهم في اموالهم »
« وثمرات اتعابهم كمسلم حقيقي يألم بمصاب اخيه فلم تجد »
« نفسي في جسمي دماً يتأثر ولا بقلبي محلاً للأسف »
« أو الرحمة »

« ولما تساءلت مع وجداني عن سبب هذا الجمود »
« وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب قلت »
« لعل ذلك لكثرة ما لحقنا منها حتى تدمم القلب »
« واوشك أن يقال عنهُ تكسرت النصال على النصال »

« وقد بدا لنفسي جواب آخر على عدم الاكتراث »
« بما اصاب مسلمي كريد لم يبعد عني اختلاج النفس »
« بالاسف على مصابهم فقط بل اوشك أن يخجلني »
« حيث مر بخاطري حسبان ذلك المصاب . ذلك اني »
« قبل المجيء الى الاسماعيلية كان آخر سفري على خط »
« السويس من جهة القاهرة محطة الزقازيق ثم اتجه »
« القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهي المرة الاولى في »

« حياتي التي مررت بها على التل الكبير والقصاصين »
« والمحسمة ونفيشة هذه المواقع التي اتخذت خطوطاً »
« للدفاع ضد الجيش الانكليزي في سنة ١٨٨٢ . والشأن »
« ان المرور على مثل هذه البقاع للمرة الاولى يحرك »
« لوعة الاسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها . »
« ومع ذلك لم اجد ألماً أو اضطراباً »

هذا ما كتبه احد رجال المصريين المشهورين بالذكاء ومحبة الوطن . واذا اردنا أن نصدق في القول مثله يجب علينا أن نعترف اننا اذا مررنا نحن ايضاً على هذه البقاع وشاهدناها فلا تتحرك نفوسنا اكثر مما تحركت نفسه ولا تشعر باكثر مما شعر

ومن البديهي أن هذا الجمود كما سماه صاحب هذه المقالة ليس منشأه ان ابراهيم باك الهلباوي رجل جاهل او لا يعرف أن محبة الوطن واجبة . وليس سبب هذا الجمود ما توهمه حضرته من ان قلوبنا صلبت لكثرة ما لحقنا من المصائب . لان توالي المصائب لا يذهب

بالشعور من النفس ولا يضعفه بل يزيد الشعور ويقويه ويعلم الصبر ويشد العزائم

وانما السبب الحقيقي لفقد الشعور الى هذا الحد هو اهمال تربية العواطف عندنا في زمن الطفولية وتبع ذلك ان اعصابنا اصبحت لا تتأثر الاّ بالاحساسات المادية التي تقع عليها مباشرة وصارت غير قابلة للتأثر بالمعاني النفيسة

رأيت مدة وجودي في فرانسا طفلاً عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبي على فرقة من العساكر الفرنساوية وهي عائدة من حرب التونكين . فلما مر امامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيي العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه . فاحسست ان الوطن تجسم لهذا الطفل في العلم الذي مر امامه وأثار فيه جميع الاحساسات التي بعثها فيه ما تربى عليه من حبه حتى خلته رجلاً كاملاً . اما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور الى انهم صاروا يعملون اعمال الاطفال فكان الكثير من النساء

يُقبّل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهنَّ واغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم في الطريق

بمثل هذه المناظر وبما يدور فيها وعنها من الاحاديث امام الاطفال ينغرس الشعور الوطني في نفوسهم ويزهر ويثمر . وهكذا الحال في تربية الفضائل الاخرى

فانحطاط المصري انما هو ناشيء من حرمانه من هذه الرتبة الاولى . ينمو الطفل بيننا كما ينمو النبات ولا يهتم احد من اهلهِ الاَّ باعطاءه التغذية والملبس . فهم يعتنون به كما يعتني اي انسان بحيوان يحبه . فكل بناء يقام بعد ذلك على هذا الاساس هو بناء على الرمل لا يلبث ان ينهار مهدوماً

وبالجملة ان التربية تنقسم الى قسمين تربية العقل وهي التي توجه مدارك الانسان الى اكتشاف حقائق العالم وتربية الروح وهي التي توجه ارادته الى الخير وتميل باحساسه الى الجميل . وكلتاهما لازمتان لسعادة الانسان

اما التربية العقلية فمنبعها المكاتب والمدارس واما التربية الروحية فلا تكتسب الا في العائلة . ولا يمكن اكتسابها في العائلة الا اذا كانت الام هي اول من يديرها ولا يمكن ان تديرها الام الا اذا كانت على جانب عظيم من الرقى العقلي والادبي لهذا قلنا ان المصريين اذا ارادوا ان يرتقوا وجب عليهم ان يعملوا لارتقاء شأن المرأة المصرية

ومما يوجب الاسف ان المصريين لم يفهموا الى الآن هذه الحقيقة تمام الفهم في حين ان رجالاً من مسلمي الهند قد صعدوا بفكرهم وتوصلوا بابحاثهم الى ادراك شأن المرأة في الهيئة الاجتماعية واحاطوا بما لوظيفتها من الاهمية . وقد قام رجلان من اعاظمهم احدهما الامير علي القاضي والثاني عناية حسين

فنشر الاول مقالة جليلة موضوعها النساء في الاسلام ترجمت في مجلة المقتطف في عدديها الصادرين في شهر يونيه ويوليه سنة ١٨٩٩ ونقتطف منها من غير ترتيب ما يأتي :

ما من مقياس يقاس به ارتقاء الامم مثل منزلة »
« المرأة فيها فاذا اراد مسلمو الهند ان يرتقوا وجب »
« عليهم ان يعيدوا للمرأة المنزلة الرفيعة التي كانت فيها »
« في صدر الاسلام »

« وكفا من تاريخ روسيا الحديث دليل على »
« ارتباط تقدم الامم المادي والمعنوى بمقام المرأة فيها »
« فقد بقيت نساء الاشراف في روسيا متحجبات الى »
« بداءة القرن الثامن عشر يعشنَ في بيوت بل في »
« سجون لا يدخلها النور ولا الهواء أسدلت الاستار »
« على كواها واحكمت الاقفال على ابوابها ووضعت »
« مفاتيحها في جيوب الآباء والازواج . واذا اريد نقلهنَّ »
« من مكان الى آخر نقلنَ في محفات متحجبات »
« متبرقعات كما تنقل النساء في بلاد الهند . فلما فكت »
« قيود النساء وجارينَ الرجال في العلم والتهذيب وصرنَ »
« من دعائم الهيئة الاجتماعية صارت بلاد الروس من »
« اعظم ممالك الارض »

« كانت شمس المعارف في المشرق فانتقلت الى »
« المغرب فمنه يجب ان نستمد النور وكل من يسعى في »
« اعلاء شأن نساءنا له عندنا شكر ولكن لا يغير الله »
« ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »
« ولا بد ان يسأل سائل هل كان نساء الخلفاء »
« وغيرهنَّ من النساء يبرزنَ ملتفات بالاكفان كالنساء »
« الشرقيات في مدن الشرق الآن . ويظهر لي انهنَّ »
« لم يكنَّ يلبسنَ غير النقاب يسترنَ بهِ وجوههنَّ كما »
« تستر نساء الاستانة الآن باليشمك فيخفي غضون »
« الشيخوخة ويظهر جمال الصبا اما البرقع الشامل »
« للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع الا في اواخر عهد »
« السلاجقة واما الاحتجاب بالبرده على ما هو شائع »
« الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان فلم يكن »
« معروفاً في تلك العصور والنساء من الطبقات العليا »
« كنَّ يظهرنَ امام الرجال غير متبرقعات »
« واستخدم العرب الخصيان في عهد معاوية آخذين »

« ذلك من الروم واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد »
« الأموي الثاني وأمر المتوكل — نيرون العرب — »
« بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات »
« العمومية . ولكن بقي النساء يختلطن بالرجال الى »
« اواخر المائة السادسة للهجرة وكنّ يقابلن الزوار »
« ويعقدن مجالس الانس ويعنين الى الحرب لابسات »
« الحديد ويساعدن اخوتهن وازواجهن في الدفاع »
« عن القلاع والمعاقل »

« ولما اضمحل شأن الخلفاء في اواسط المائة السابعة »
« ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون »
« في هل الاليق بالنساء أن يظهرن ايديهن او اقدامهن ! »

والقى الثاني خطبة في جمعية الآداب الاسلامية بمدراس في الهند ترجمت في جريدة المؤيد الصادر في ١٤ يوليو سنة ١٩٠٠ نقتطف منها ما يأتي :

« ولدينا نقطة اخرى عظيمة الاهمية لا ارى »
« مندوحة من الكلام فيها والبحث فيما يتعلق بشأنها »

« اذ لا ترتقي امة ولا تسمو مملكة الا بواسطتها وهذه»
« النقطة هي تربية البنات . اذا لم تتحققوا ايها السادة ان »
« النساء والرجال توأمان عاملان في الهيئة الاجتماعية »
« وانهم اما ان يقوموا معاً واما ان يسقطوا معاً فلا سبيل »
« الى الرقي ولا وسيلة الى التقدم والنجاح ولا نقدر ان »
« نقول ان اساس امتنا موطد الدعائم ثابت البنيان . »
« تذكروا ان الطفل هو والد الرجل وانه متى كانت »
« الامهات جاهلات لا يقدرنَ على بث انوار المبادئ »
« الادبية والتهذيبية في نفوس اولادهنَّ ولا يرقينَ »
« عقولهم ولا يقوينَّ ابدانهم بالوسائل الصحية فاننا »
نبقى الى الابد في آخر صف من صفوف الامم »

فانظر الى ما يكتبهُ رجال من اهل الفقه والعلم في الهند والى ما كتبه فقهائنا وكتابنا حيث قالوا ان المرأة لا شأن لها في ارتقاء الامم وانها لا يجب ان تتعلم الا ما يلزمها من فرائض دينها للعبادة ويسوغ لها ان تتعلم القراءة والكتابة وقاموا جميعهم ينصحون الناس

بتشديد الحجاب عليها ويحذرونهم من السير في طريق الكمال الذي اشرنا اليه بحجة انه تقليد للغربيين في عاداتهم ويوهمون ان الغربيين انفسهم متألمون من حال نسائهم !

وقد بينّاً بالتفصيل الاسباب الاجتماعية التي يلزم لاجلها العناية بشأن المرأة واخراجها من الحجر الذي سقطت تحته ازماناً طويلة وبرهنا على انها هي صاحبة السلطة على الاخلاق والقابضة على زمام الآداب وانها هي التي تسوق الامم في طريق الخير والشر وانها لا يمكنها ان تحسن القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية الا اذا كانت على جانب عظيم من العقل والعلم والادب

نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب في شأن المرأة الغربية ومع علمنا بما هي عليه . ولا نرى مانعاً من السير في تلك الطريق التي سبقتنا فيها الامم الغربية . لاننا نشاهد ان الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يوماً فيوماً ونرى ان البلاد التي يتمتع فيها النساء بحريتهن

وبجميع حقوقهنَّ هي التي تسير كالدليل امام الامم الاخرى وتهديها في سبيل الكمال في المدنية . ومن جهة اخرى نرى ان جميع الامم التي حطت من شأن نسائها على غاية من الضعف وهي في ذلك على درجة واحدة أو نسب متقاربة لا يظهر التفاوت بينها مع اختلاف الاقاليم وتباين الشعوب والاديان

هذا هو المشاهد الواقع تحت انظارنا ولا يمكن لعاقل ان يجادل فيه

اما ما زعموهُ من ان الاوربيين يتـألمون من حال نسائهم أو يشتكون من بعض مطالبهنَّ فذلك موضوع آخر غير ما نحن فيه . ومسئلة النساء التي هي موضوع بحثنا في بلادنا غير مسئلتهنَّ في ما يكتبه بعض الكتاب الغربيين . فاننا في هذه البلاد نطالب بمنح المرأة حريتها الجسميه وانالتها حقوقها الشرعية وتهذيبها وتمكينهـا من اداء وظائفها في البيت . وهذا الطلب لا ينازعنا فيه غربي مهما انحطت درجته في العقل والاحساس

وانما يشكو بعض الكتاب الغربيين من سوء استعمال بعض النساء لحريتهن ومن طلبهن مساواة الرجال في حقوقهم السياسية

وحينئذٍ فالاستدلال بآراء هؤلاء الكتاب للرد علينا هو مغالطة او خلط بين موضوع وموضوع . اذ كل انسان يميز بين تقرير الحق وبين استعماله

هذه حرية الصحافة هنا وفي بعض بلاد اوروبا قد ساء استعمالها الى حد ان صار كل انسان يتألم منها ولكن لم يفكر عاقل في ان يدعي ان الواجب هو الحجر على الافكار لان هذا الدواء يكون أمرّ من الداء الذي يرام معالجته

فالاسباب التي يبنى عليها كتابنا رأيهم في الحجر على حرية النساء هي عين الاسباب التي انتحلتها الحكومات الشرقية لحرمان ابنائها من حرية القول والكتابة والعمل . وهي التي اغرت متأخري المسلمين بقفل باب الاجتهاد في التوفيق بين احكام الدين وحاجات الامم على اختلاف

الامصار والاعصار مع عدم الخروج عن الاصول العامة التي قررها الكتاب والسنة الصحيحة . وهي التي زينت للآباء عندنا ان يستعملوا في تربية اولادهم وسائل القسوة والغلظة . وهي التي كانت تقضي على الحكام عندنا من عهد ليس ببعيد بوضع تعريفة للبائعين يحددون فيها اثمان اللحم والخضار والسلى واغلب ما يباع ويشترى في الاسواق

ومنشأ ذلك كله الاهتمام بازالة المضار التي تظهر في بعض احوال البشر والغفلة عن المحافظة على منافعهم . وقد يكون من اسباب تلك الغفلة ان وجوه المنافع في احوال الناس وهي جهات حسنها تخفى عادة على من ينظر اليها نظراً سطحياً اما وجوه الضرر فتظهر عادة للعموم . لانها تتشكل باشكال الجرائم والفظائع التي تنفر منها النفوس . فاول ما تتجه اليه النفس النافرة هو ان تمحو هذا الاثر باية طريقة . واقرب الطرق واسهلها في بادئ الامر هو العنف والشدة

ولكن المتأمل اذا روّى في الامور يجد أن لسير الانسانية قوانين خاصة يجب مراعاة احكامها في نموّ الحياة واستكمال قواها سواء في الافراد او في الاجتماع وان كل مخالفة لهذه القوانين لها اثر سيئ وضرر عظيم يلحق الفرد او الهيئة الاجتماعية

اذا تقرَّر هذا فسلب المرأة حريتها هو اكبر مخالفة لقوانين نموّها العقلي والادبي . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها في اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في منع بعض النساء من اتيان ما ينشأ عنه ذلك الضرر ولكن من المحقق انه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضرراً عاماً مستمراً وهو تعطيل النموّ في ملكات صنف النساء بتمامه

وبالجملة فاننا لا نهاب ان نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهنَّ في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهنَّ بالتربية حتى لو كان من المحقق ان يمررنَ في جميع الادوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات . لاننا على

ثقة من ان جميع المطالب التي يطمح اليها نساء الغرب في هذه الايام ليست من المسائل التي يعضل حلها و يدوم القلق بسببها بل يقضي فيها المستقبل بحكم العقل والحق وربّ سائل يسأل الى مَ تنتهي هذه الادوار التي تنتقل فيها النساء ؟ فالجواب ان ذلك سرّ مجهول ليس في طاقة احد من الناس ان يعلمه . وكما اننا نجهل ماذا يكون حال الرجل بعد مائتي سنة كذلك لا يمكننا ان نعرف ماذا يكون حال المرأة بعد مرور هذه المدة . وانما نحن على يقين من امر واحد وهو ان الانسانية سائرة في طريق الكمال . وليس علينا بعد ذلك الا ان نجدّ السير فيه ونأخذ نصيبنا منه

التربية والحجاب

لو لم يكن في الحجاب عيب الا انه منافٍ للحرية الانسانية وانه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لو لم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده في مقته وفي ان ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرّر ان تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن أن يستغنى عنها فما هي التربية التي تناسبها ؛ هل

يناسبها تربية كتربية الرجل او تخص بتربية اخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب او لا بد فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تأخذ من العلوم الغربية الحديثة او يرجع فيها الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل في باب التربية والحجاب وقد دار البحث والجدال فيها في العام الماضي بين كثير من الكتاب والآن نريد ان نبدي رأينا فيها على غاية من الوضوح

ففي المسألة الاولى — لا نجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل

اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات التي تشارك اقاربهن الرجال في اغلب الرياضات البدنية . ويلزم ان تعتاد على ذلك من اول نشأتها وتستمر عليه من غير انقطاع والا ضعفت

صحتها وصارت عرضة للامراض . ذلك لان النواميس
الطبيعية تقضي بضرورة التوازن بين ما يكسبه الجسم
وما يفقده بحيث لو اختل هذا التوازن فسدت الصحة
واختل نظامها . والامراض التي تصيب الانسان بسبب
اهماله استعمال قواه الجسمية ليست باقل عدداً ولا باخف
ضرراً من الامراض التي تصيب من ينفق قوته ولا
يعوض بالتغذية ما فقد منها . ثم ان ما تقاسيه المرأة من
الآلام والمشقات حين الولادة في مرة واحدة ربما يزيد
على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته . ولا يحتمله
من النساء الا قويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء
القرى المتعودات على العمل البدني المتمتعات بالهواء
النقي . أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع
بالشمس والهواء فلا قدرة لهنَّ على احتمال هذه المشقات
ولذلك فان اكثرهنَّ يعشنَ عليلات بعد الولادة الاولى
وكثيراً ما يهلكنَ فيها فقد بلغ عدد من يموت منهنَّ في
النفاس اكثر من ثلاثين في الالف

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من الهلاك والامراض كذلك يلزم العناية بصحتها حرصاً على صحة اولادها ووقايتهم من العلل . لان ما يعرض على مزاج الام وما يكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

واما من جهة التربية الادبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق وائتمنتها عليها . فهي التي تصنع النفوس وهي ساذجة لا شكل لها فتصوغها في اشكال الاخلاق وتنشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقاً للامة بعد ان كانت اخلاقاً للعائلة كما كانت اخلاقاً للعائلة بعد ان كانت اخلاقاً للأم . هذا يدلنا على ان المرأة الصالحة هي انفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي اضرّ عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس في كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا

تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلي من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل

بقي علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية . هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التي ترمي اليها هي ان يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات وفيها نفسه حتى اذا عرف ذلك على حقيقته امكنه ان يوجه اعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة المعرفة فيعيش سعيداً

والمرأة كالرجل على حدٍّ سواء في الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ولا فرق بينها وبينه في التشوق الى استطلاع عجائب الكون والوقوف على اسراره لتعلم مبدأها ومستقرها وغايتها

ومهما عظم اشتغال المرأة متزوجة او خالية ذات اولاد أم لا فانها تجد من الوقت ما تثقف فيه عقلها وتهذب نفسها

ولو خصص نساءنا للمطالعة عشر الوقت الذي يقضينه اليوم في البطالة ولغو الكلام والخصام لارتقت بفضلهنَّ الامة المصرية ارتقاء باهراً

ولا تتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضاً لتعلم اصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات واحوال الانسان كما انها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها

والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد . حتى اذا انتهت مدة تعليمها في المدارس استمرَّ شوقها الى الحق فتتحرك دائماً اليه وتعتبر به

وأضيف على ذلك انه ينبغي على البنت ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بد هنا من استلفات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتمية الميل في نفسها الى الفنون الجميلة. واني على يقين من ان اغلب القرآء لا يستحسنون ان تتعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة في الاشتغال بهذه الفنون ومنهم من يعدها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون في بلادنا الى حدٍّ يأسف عليه كل من عرف ما لها من الفائدة في ترقية احوال الامم

فن التصوير والرسم له فائدة لا تقل عن فائدة العلم لان العلم يعرفنا الحقيقة وهذا الفن يحببها الينا لانه يبديها لنا على الشكل الاكمل الذي يتخيله صاحب الفن فيبعث فينا بذلك الميل الى الكمال . والكمال شيء يدركه عقلنا لكنه لا يقع تحت حواسنا فلا يمكننا ان نتصوره الا اذا صار مجسماً امامنا في شكل لطيف نحسّ به. ومتى رأيناه في هذا الشكل تعلقت نفسنا بمحبته . وكلما كان صاحب

الفن ماهراً في فنه حاذقاً في صناعته كان صنعه اقرب للكمال وكانت النفس اكثر ميلاً اليه واشد اعجاباً به واعظم سروراً بالاحساس به

ولفن الموسيقى مثل هذه المزايا فانها افصح لغة تعبر عما في ضمائرنا والذ ما يرد على مسامعنا . ومن احسن ما وصفت به قول افلاطون :

« ان الموسيقى تبعث الحياة في الجماد ويسمو بهـا »
« الفكر ويرتقي الخيال وتبث في النفس الفرح والسرور »
« وترفعها عن الدنايا وتميل بها الى الجمال والكمال . »
« فهي من عوامل الادب للانسان »

هذه هي التربية التي نود ان تكون للبنات وقد بيناها اجمالاً لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلاً . هذه هي التربية الكاملة التي تيسّر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون انساناً يكسب عيشه بنفسه وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء وأماً صالحة لتربية اولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت سن الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمرها فما الذي ينبغي ان تكون عليه بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب في بيتها وتمنع عن مخالطة الرجال أو تطاق لها الحرية في ذلك ؟ هذا هو موضوع البحث في المسئلة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط

رأى المنتقدون على تحرير المرأة اننا تطرفنا في مسئلة الحجاب واننا اشرنا برفعه تقليداً للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائه والمحافظة عليه وقالوا ان الذي حط بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلو تربت تربية حسنة امكنها وهي في في الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام

على اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل او كتب في هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار

البحث فيه الا وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليه

ولا نرى سبباً للخلاف بيننا وبين مناظرينا الا الاختلاف في فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هي التعلم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير في المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عمله فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانه متى نال هذه الورقة السميكة التي سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) عُدَّ بالغاً في العلم والادب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد ان التربية لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيده الصبي من ذلك في ايام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه

ذلك لان الصبي في السنة الرابع عشرة او الخامس عشرة من عمره لا يعرف من العلم الا نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها في جمل مختصرة . ومهما كانت هذه القضايا علمية او ادبية فلا قيمة لها الا بظهورها في العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحدد دائرة

تطبيقها والحد الذي يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التي تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها . هذه التطبيقات هي الواسطة الوحيدة في فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الا ألفاظ وخيالات

لهذا لا يخطر على بال رجل عاقل ان يسلم نفسهُ الى طبيب يوم خروجه من المدرسة ولا يختار محامياً للدفاع عنه يوم نيله للشهادة وهو لم يتمرن على العمل زمناً كافياً

وكذلك الحال في الآداب والاخلاق . اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهره نفسه ولكن لا شيء اصعب في العمل من ان يأتي ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواه وجعله تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة . ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينهُ وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الادبية

وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعود على مغالبتها والتغلب عليها

فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ اعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدركات

قال سپنسر في هذا المعنى عند كلامه على التربية العقلية :

« لا فائدة من التربية التي تجعل الانسان مستودعاً »
« لافكار غيره لأن الكلمات التي توضع في الكتب »
« لا يمكن ان تنتج معاني الا على نسبة التجارب »
« المكتسبة »

وقال ادمون ديمولان عند كلامه على التربية الادبية نقلاً عن ترجمة صديقي احمد فتحي بك زغلول :

« ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى »

« ان الامم التي بلغت فيها همة الانسان منتهاها هي »
« ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق »
« وتبقى المحامد وبيانه ان المؤثر الادبي انما يجعل المرء »
« قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس »
« من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها »
« اشد فعلاً من الحياة المالية التي يتعلم فيها ان لا اعتماد »
« الا على نفسه . وليس من مربٍ يأخذ بمجامع القلوب »
« اكثر من تلك الحياة . فهي التي تقود المرء الى الحياة »
« الحقيقية . وهي المدرسة الطبيعية التي تريه كيف »
« يتحمل المتاعب والرزايا وهي الاسهل تناولاً والاكثر »
« شيوعاً وطلاباً . تلك ضرورات اشد فعلاً في النفوس »
« من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين »
« الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج »
« من الاخرى . ذلك لان الاعمال تدعو الى العمل »
« اكثر من الاقوال »

فالتجارب هي اساس العلم والادب الحقيقي

والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم الا من نوافذ الجدران او من بين استار العربة ولا تمشي الا وهي كما قال الامير علي القاضي « ماشية بكفن » لا يمكن ان تكون انساناً حياً شاعراً خبيراً باحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

ولا يكفي لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين في المدرسة ثم تنتقل منها الى بيت تحجب فيه بقية عمرها بل يلزم ان نستمرّ في الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة ونشركها في حياتنا الطبيعية . يلزم ان نضع يدنا في يدها ونسير معها في الارض ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر . يلزم ان تقاسمنا افكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يعرض فيها من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملنا على رعاية

الحشمة والتأدب في القول

يقول معترض : « انا نراك تريد ان تحسن حال »
« المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربيـة فهلا »
« أعرت تمدننا القديم الذي كان من اصوله احتجاب »
« النساء نظرة وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى »
« مجدها القديم فتلتفت الى اصوله لفتة علمية ترى انه »
« هو المجد الصحيح الذي يجب ان نشد له رواحل »
« العزائم والذي سيتضح للعالم اجمع يوماً ما انه هو »
« نفس الكمال الذي ينشده الانسان ويلتمسه الوجدان »

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعه لطلاوة لفظه وربما ينجذب اليه لانه يحرك الميل الغريزي الموجود في كل انسان الى التعلق بآثار الآباء والاجداد . ولكن الاجدر بنا ان لا نجعل للفظ تأثيراً فينا الى حد يذهلنا عن الحق . وعلينا ان نأخذ اهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لا يحتاج الى التحريض والترغيب لانه

حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها فهي مستغرقة فيها من ذاتها وانما الذي يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماض ضارّ واعتناق مستقبل نافع

اذا امكننا ان نأخذ تلك الاهبة كان من اهمّ ما يجب علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي القديم ونرجع اليه . ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر في اسباب ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان

ظهر الدين الاسلامي في جزيرة العرب بين قوم كانوا يعيشون في حال البداوة اسيء في ادنى الحالات الاجتماعية فاوجد بينهم رابطة ملية واخضعهم الى رئيس واحد ووضع لهم شرعاً نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة في معاملاتهم من قديم الزمان . ولما امرهم بالجهاد أخذوا يحاربون الامم الاخرى واستولوا عليها ولم يكن

ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الامم في العلوم والصنائع ولكن كان بروح الوحدة التي بعثها الاسلام فيهم مع استعدادهم الفطري للقتال . فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الامم كثيراً من العلوم والصنائع والفنون فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم وسمحوا لاولئك المغلوبين ان يأتوا في ترقيتها بما شاؤا . وظهرت عند ذلك نهضة علمية كما هو الشأن في الامم عقب كل انقلاب يجري لغاية صالحة استمرّت مدة اربعة قرون تقريباً

على هذين الاساسين شيدت المدنية الاسلامية الاساس الديني الذي كوّن من القبائل العربية أمة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . والاساس العلمي الذي ارتقت به عقول الامة الاسلامية وآدابها الى الحد الذي كان في استطاعتها ان تصل اليه في ذلك العهد

ولكن لما كان العلم في تلك الاوقات في اول نشأته

وكانت اصوله ضروباً من الظنون لا يؤيد اكثرها بشيء
من التجارب كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين
فتغلب الفقهاء على رجال العلم ووضعوهم تحت مراقبتهم
وزجوا بانفسهم في المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث
انهم لم يأتوا اليها من بابها ولم يجهدوا انفسهم في فهمها
اخذوا يؤلون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا
منها ادلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على ان
يسيئوا الظن بها وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم
بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه
وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بان العلوم جميعها باطلة الا
العلوم الدينية . بل غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى
قالوا في العلوم الدينية نفسها انها لا بد ان تقف عند حد
لا يجوز لأحد ان يتجاوزه . فقرروا ان ما وضعه بعض
الفقهاء هو الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد ان يخالفه
وكأنهم رأوا من قواعد الدين ان تسد ابواب فضل الله
على اهله اجمعين

هذا النزاع الذي قام بين اهل الدين واهل العلم ولا اقول بين الدين والعلم لم يكن خاصاً بالامم الاسلامية بل وقع كذلك عند الامم الاوروبية . ولكن لما كانت هذه الامم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب وكان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينها لم تحتج اوروبا الى زمن طويل في اكتشاف الاصول الحقيقية لتلك العلوم . وقد نالت منها في مائتي سنة ما لم ينله غيرها في آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضاً ويرشد بعضها الى بعض . فمنها اكتشاف قوانين سير الكون وتحليل الضوء وسرعة سيره وكيفية تكوُّن الاصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها وعلمت ماهية الحرارة وكيفية تكوُّن الكرة الارضية وحقيقة شكلها وتكون طبقات الارض وتقادم الاعصار عليها وعلى سكانها وضروب التغييرات التي طرأت عليها والادوار التي تقلبت فيها من وقت ان كانت كتلة نارية الى ان ظهر فيها النوع الانساني بعد جميع الانواع الاخرى . ثم عرفت

قوانين الحياة ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم وخصائص قوى الادراك وكيف تتكون خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى . وصححت وكملت اصول الكيمياء والطبيعة

من هذه الاكتشافات اخذ الكتاب والفلاسفة ما دعت اليه الحاجة ليعلموا الانسان من اين اتى والى اين يذهب وما هو مستقبله ووضعوا اساس العلوم الادبية والاجتماعية والسياسية

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متيناً لا يمكن لعاقل ان يفكر في ان يهدمه . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين في اوروبا بعد النزاع والجهاد وانتهى الحال بان صار للعلم سلطة يعترف له بها الناس كافة

فاذا كان التمدن الاسلامي بدأ وانتهى قبل ان يكشف الغطاء عن اصول العلوم كما بيناه فكيف يمكن ان نعتقد ان هذا التمدن كان « نموذج الكمال البشري » يهمنا ان لا نبخس اسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم

ولكن يهمنا مع ذلك ان لا نغش انفسنا بان نتخيل انهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس وراءها غاية نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها. لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه لانه يحتوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ويجب عليه ان يعجب به لانه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية

اما من جهة العلوم فالامر ظاهر لما سبق بيانه

واما من جهة النظامات السياسية فلأننا مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند اهل تلك العصور ما يستحق ان يسمى نظاماً فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة او سلطان غير مقيد يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين فكان الحاكم وعماله يجرون في ادارتهم على

حسب ارادتهم فان كانوا صالحين رجعوا الى اصول العدالة بقدر الامكان وان كانوا غير ذلك خرجوا عن حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ولم يكن في النظام ما يردهم الى اصول الشريعة

ربما يقال ان هذا الخليفة كان يولى بعد ان يبايعه افراد الامة وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الامر . ونحن لا ننكر هذا ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب الآ بعض دقائق هي سلطة لفظية . اما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الامر . فهو الذي يعلن الحرب ويعقد الصلح ويقرّر الضرائب ويضع الاحكام ويدير مصالح الامة مستبداً برأيه ولا يرى من الواجب عليه ان يشرك احداً في امره

ومن الغريب ان المسلمين في جميع ازمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الامة الرومانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ

مصالح الامة وحريتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في ادارة شؤونها

واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الاعمال التي وجدوا انها تستحق العقاب ويحدد العقوبات عليها بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء . مع ان بيان الجرائم وعقابها هو من اوليات اصول العدالة

ولست محتاجاً ان اقول انهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان هذه العلوم حديثة العهد . واذا اراد مكابر ان يتحقق من ذلك فما عليه الا ان يتصفح مقدمة ابن خلدون وهو الكتاب الفرد الذي وُضع في الاصول الاجتماعية عند المسلمين يرى ان الاصول التي اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطاء ويندهش على الخصوص عند ما يرى ان هذا الكتاب الذي وُضع للبحث في المسائل الاجتماعية لم تذكر فيه كلمة واحدة في العائلة التي هي اساس كل هيئة اجتماعية

فاذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى فما الذي يطلب منا ان نستعيره منها ؟

كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجد انها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل يكتفي في عقد زواجه بان يكون امام شاهدين ويطلق زوجته بلا سبب او باوهى الاسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمرّ الى الآن على ما هو مشهور ولم يفكر احد من الحكام او الفقهاء في وضع نظام يمنع ضرر انحلال روابط العائلة . واقل ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل ان يقرّروا مثلاً ان ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لا بد ان تكون امام مأمور شرعي حتى لا تبقى هذه الشؤون موضعاً للريب ومحلاً للشبهة ومثاراً للنزاع والشقاق

اين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الاوروبيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية . بل اين هي من القوانين اليونانية والرومانية

التي لم تغفل في جميع ادوارها عن اهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية ؟ فاي شيء من هذا يمكن ان يكون صالحاً لتحسين حالنا اليوم ؟

بقي علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي من جهة الآداب . يعتقد اهل عصرنا ان المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع انواع « الكمالات الاخلاقية الصحيحة » وهو اعتقاد غير صحيح او على الاقل مبالغ فيه

اما من جهة اصول الأدب فالمعلوم ان المسلمين لم يأتوا للعالم باصول جديدة . فقد سبق المسلمين امم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم وقد كانت تلك الامم تعرف تلك الاصول وضمنتها كتبها ونزلت على بعضها في وحي سماوي

واما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الاصول الادبية فالتاريخ يشهد على ان كل عصر لا يخلو من الطيب والرديء والحسن والقبيح وقد وصلت الينا اخبار العرب مدونة في الكتب التاريخية والادبية

فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم واطلعنا على
شعرهم وامثالهم واغانيهم فما وجدنا زمناً من الازمان خالياً
من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة .
رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
الى آخر ايامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن
التباغض والحقد وحب الذات حتى في الاوقات التي
كانت فيها الدولة مشتغلة باهم الحروب مع الامم الاخرى
رأينا احد اولاد علي رضي الله عنه تزوج باكثر من مائة
امرأة حتى التجأ والده ان ينصح الناس بان لا يزوجوه
بناتهم . رأينا من الرجال من كان يعترض النساء في
الطريق ويختلس النظر اليهنَّ من خروق الحائط . رأينا
من امرآءهم واعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعي
ما يقول في مجالس تحضرها الجواري وتطرب الحاضرين
بنغمات الموسيقى . رأينا من شعرائهم من يستجدي
العطايا ويمد يده ملتمساً رزقه من فضلات الامراء
والاغنياء ومنهم من يمدح نفسه ويثني عليها ويذهب .

في ذلك الى حدٍ ليس بعده الا الجنون او يتغزل في ولد او يهجو خصمه بعبارات الفحش والفاظ الوقاحة التي يستحى من تصورها فضلاً عن التفوه بها . رأينا من مؤرخيهم من يزور في التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الاحاديث ويضعها لغايته الذاتية

فاي زمن من الازمان السابقة كان منزهاً عن العيوب حتى يصح ان يقال انه « نموذج الكمال البشري » الكمال البشري لا يجب ان نبحث عنه في الماضي بل ان اراد الله ان يمن به على عباده فلا يكون الا في مستقبل بعيد جداً

من اغرب ما اعتاد عليه العقل الانساني ان يظن ان العصر الذي هو فيه احط منزلة في الكمال من العصر الذي سبقه ومنشأ ذلك ان الابناء ينشأون على احترام آبائهم وتعظيم كل ما يصدر عنهم فالكمال عندهم ما وجدوا عليه آباءهم ويزيد ذلك تقريراً في نفوسهم ان الآباء يستهجنون دائماً ما صار اليه ابناءهم مما لم يكن

معهوداً لهم وهم لا يستطيعون ان يغيروا انفسهم فيكون وهم الابناء وغرور الآباء كل منهما عوناً للآخر على استقباح الحاضر وعبادة الماضي ·

ولو صح ما يزعمون لكان اكمل انسان هو اول من وُجد من نوعه ولاستمر النقص عصراً بعد عصر الى هذا اليوم ولكانت نهاية الانسان أن يصير حيواناً اعجم · مع انه من الثابت ان عصوراً مضت على النوع الانساني وهو في ادنى مراتب الانسانية ثم ارتقى بالتدريج الى ان وصل الى هذه الدرجة العليا التي يحق له ان يفتخر بها

متى تقرّر ان المدنية الاسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليه لا بما كانت في الحقيقة عليه وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة فسيان عندنا بعد ذلك ان احتجاب المرأة كان من اصولها او لم يكن · وسواء صح ان النساء في ازمان خلافة بغداد او الاندلس كنّ يحضرنَ مجالس الرجال او لم يصح فقد صح ان الحجاب هو عادة

لا يليق استعمالها في عصرنا

ونحن لا نستغرب ان المدنية الاسلامية اخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطأها في ذلك اكبر من خطأها في كثير من الامور الاخرى

وغني عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم تقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التي يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التي اختصت بها . ذلك لان عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما به من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الا اثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الامم التي سبقت

والذي اراه ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الاهواء التي يجب ان ننهض جميعاً لمحاربتها لانه ميل يجرنا الى التدني والتقهقر . ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الا شعورنا باننا ضعاف عاجزين عن

انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن ان تستقيم بها مصالحنا . فهو صورة من صور الاتكال على الغير كأن كلاً منا يناجي نفسه قائلاً لها : اتركي الفكر والعمل والعناء واستريحي فليس في الامكان ان تأتي بابدع مما كان

هذا هو الداء الذي يلزم ان نبادر الى علاجه . وليس له من دواء الاَّ اننا نربي اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها

اذا اتى هذا الحين ونرجو ان لا يكون بعيداً انجلت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا انه من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة وان احوال الانسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية او ادبية خاضعة لسلطة العلم

لهذا نرى ان الامم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق

تربيتها ولغتها وكتابتها ومبانيها وطرقها بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والاكل . اما من جهة العلوم والصنائع فلا يوجد اختلاف الا من حيث كونها تزيد او تنقص في أمة عن أمة أخرى

من هذا يتبين ان نتيجة التمدن هي سوق الانسانية في طريق واحدة وان التباين الذي يشاهد بين الامم المتوحشة او التي لم تصل الى درجة معلومة من التمدن منشأه ان أولئك الامم لم تهتدِ الى وضع حالتها الاجتماعية على اصول علمية

هذا هو الذي جعلنا «نضرب الامثال بالاوروبيين» ونشير بتقليدهم وحملنا على ان « نستلفت الانظار الى المرأة الاوروبية »

هذه مسئلة تحديد حقوق المرأة وتربيتها قد اجتهدت كثيراً في ان اقف على رأي علماء المسلمين فيها من المتقدمين أو المتأخرين فما وجدت شيئاً . وقد نبهني احد اصحابي الى كتاب ألفه في هذا الموضوع حضرة

الشيخ حمزه فتح الله المفتش بنظارة المعارف وقد قرأته من اوله الى آخره فوجدته يحتوي على كل شيء ولكنه لم يشتمل على شيء مما وضع الكتاب لاجله . ومن الغريب ان الذين لم يرق في نظرهم اعجابنا بالاوروبيين اضطروا جميعهم بما فيهم الشيخ الازهري أن يستشهدوا في الرد علينا بآراء بعض العلماء والكتاب الاوروبيين نساء ورجالاً

فان كان منهم من يقول اني قليل الاطلاع على ما كتبه المسلمون قصير الباع في علومهم فانا لا اجادله في هذا وانما يسرني ويملأ قلبي بهجة ان ارى كتاباً اسلامياً قديماً او جديداً يحتوي على حقوق المرأة وما يجب عليها من حيث هي امرأة وزوجة وأم وفرد من أمة . فان جاءني من يزعم قلة اطلاعي وقصر باعي بكتاب مثل هذا اتلقاه حمداً وشكراً

سيقول ارباب الافكار عندنا انا نسلم بان المدنية الاوروبية صحيحة حسنة نافعة بالنسبة للعلوم التي توصلت

الى جمعها وانمائها واستخدامها ولكنها فاسدة رديئة ضارة بالنسبة للاخلاق والآداب التي تلازمها في كل مكان وصلت اليه

فهم يعترفون للغربيين بانهم ارقى منا في العلوم والفنون والصنائع . ويعترفون بأن معارفهم اوصلتهم الى توجيه اعمالهم في طريق تحصيل منافعهم باحسن الوسائل الموصلة الى السعادة في هذه الدنيا ولكنهم متى رأوا طرق معاملاتهم بعضهم مع بعض وخصوصاً كيفية معاملة رجالهم لنساءهم او سمعوا بها تغير حكمهم عليهم تغيراً كلياً واعرضوا عن فهم ما هم فيه وصرحوا بأنهم احط منا في الآداب . هذا الاعتقاد يشبه ان يكون عاماً فينا كما يلاحظه من يقرأ الجرائد ومن يلتفت الى الاحاديث التي تدور بين الناس . وهو اعتقاد لا يصعب علينا بيان سببه

ذلك اننا نذعن بتقدم الغربيين علينا في العلوم والصنائع لاننا نرى آثارها محيطة بنا من جميع اطرافنا

فكلما التفتنا الى جهة من جهاتنا وجدنا اثراً منها مشهوداً نراها في البيت في مأكلنا ومشربنا وملبسنا وجميع ادوات المنزل واثاثه . نراها في المدرسة مدة التعليم ثم في النظامات التي تدور عليها جميع اصول وفروع ادارتنا وحكومتنا . نراها في الطرق على شكل عمارات فاخرة وحوانيت كبيرة وبساتين منتظمة وشوارع نظيفة تسير فيها العربات والآلات البخارية والكهربائية . وبالجملة نرى في كل آن وفي كل مكان برهاناً مادياً لا يمكن معه الا التسليم باننا متأخرون عن الغربيين كثيراً في المعارف العلمية والصناعية

وكأنما نريد ان نمحو العار الذي يلحقنا من هذا الاعتراف ونأخذ بثأرنا فلا نجد وسيلة لذلك الا ان ندعي اننا ارقى منهم في الآداب وانهم ان سبقونا في الماديات ومظاهرها فقد سبقناهم في الروحانيات وسرائرها

وانما سهل علينا التمسك بهذه الدعوى لان التقدم في الماديات مما يقع تحت الحس فلا يمكن انكاره اما

التقدم في الامور المعنوية فهو مما لا يدرك الا بالعقل فلا يقف عليه كل انسان ويجد المكابر في غيبته عن الحس مجالاً للانكار . وقد يساعد المكابر في مكابرته ما يراهُ أو يسمع به في البلاد الغربية من كثرة الملاهي ومسارح الشهوات وغير ذلك من سيء العادات التي يتبرأ منها الغربيون انفسهم ويتألمون لانتشارها والعقلاء منهم يسعون في محوها أو تقليلها ولكنهم يأسفون على ان مساعيهم تعجز عن الوصول الى ما يتمنون . فاغتنمنا فرصة وجود هذه العيوب واتخذنا منها حجة لتأييد دعوانا

ومما آخذناه على الغربيين في آدابهم تكشف نساءهم واختلاطهنَّ بالرجال وتمتعهنَّ بالحرية التامة واحترام الرجال لهنَّ . وكثير منا يعد هذه العادات اسباباً لفشو الفساد فيهم ويعتقدون ان جميع نساءهم لا يعرفنَ العفة وكل الرجال مجردون عن الغيرة

ولما كانت غاية التمدن هي تهذيب النفس وتطهيرها من الرذائل والابتعاد بها عن المنكرات والخبائث ونشر

الفضيلة بين الناس كان لنا الحق في احتقار المدنية الاوروبية ان صح ما اعتقدناه فيها

ولكن هل هذا الاعتقاد صحيح ؟

اما كون الآداب في الغرب احط منها في الشرق فهي مسئلة لا يسمح لنا موضوعنا باستيفاء البحث فيها ويمكننا ان نجمل الكلام عليها في قليل من العبارات :

ان العداوة القديمة التي استمرت اجيالاً بين اهل الشرق والغرب بسبب اختلاف الدين كانت ولا تزال الى الآن سبباً في ان جهل بعضهم احوال بعض واساء كل منهم الظن بالآخر وأثرت في عقولهم حتى جعلتها تتصور الاشياء على غير حقيقتها . اذ لا شيء يبعد الانسان عن الحقيقة اكثر من ان يكون عند النظر اليها تحت سلطان شهوة من الشهوات . لانه ان كان مخلصاً في بحثه محباً للوقوف على الحقيقة وهو ما يندر وجوده فلا بد ان شهوته تشوش عليه في حكمه . وأدنى آثارها ان تزين له ما يوافقها وتستميله اليه . وان كان من الذين لا منزلة

للحق من نفوسهم وهم السواد الاعظم ضربوا دون الحق استاراً من الاكاذيب والاوهام والاضاليل مما تسوله لهم شهوتهم حتى لا يبقى لشعاع من اشعة الحق منفذاً الى القلوب

وزد على ذلك ان التربية العلمية لم توجد في العالم الغربي الا من زمن قريب وهي لا تزال الى الآن مفقودة في الشرق . والمحروم من هذه التربية لا يسهل عليه ان يبني احكامه على مقدمات صحيحة . لأن الجاهل يستمد حكمه من احساسه لا من عقله . فهو لا يستحسن الشيء لانه مطابق للحق وانما يعتقد الشيء مطابقاً للحق لانه يستحسنه . بخلاف المتعود على الابحاث العلمية فان عقله لا ينخدع باحساسه . فكلما اراد ان يشتغل بمسئلة طبيعية أو تاريخية مثلاً جمع الحوادث التي تتعلق بها ورتب الوقائع واستنبط منها القاعدة التي يحكم بصحتها بناء على ما حصل من المقدمات غير صادر في ذلك الا عن حب الحقيقة . فاذا عرض له ان يشتغل بالنظر في حال

جاره او عدوه استعمل الطريقة التي ألفها وسلم بما تؤدي اليه من النتائج وخضع لها ولو كانت مخالفة لما يهواه

ولقد وصل الغربيون الى درجة رفيعة من التربية واشتغل كثير ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن احوال الشرقيين والمسلمين وكتبوا في عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم وألفوا فيها كتباً نفيسة اودعوها آراءهم ونتائج بحثهم وامتدحوا ما رأوه مستحقاً للمدح وقدحوا في ما رأوه محلاً للقدح غير ناظرين في ذلك الا الى تقرير الحق واعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم اخطأوه . أما عندنا فلم تبلغ التربية من الناس هذا المبلغ . ولهذا كان حكم كتابنا في هذه الاشياء في قياد الشهوات وتحت سلطة الاحساس والألف والعادة . ومن وجد لشعاع الحق لمعاناً في بصيرته وجد من خوف اللائمة عقلة في لسانه تمنعه من اظهاره او حمله الرياء على اطالة القول في تأييد ما لا يعتقده فاذا وُجد بينهم مخلص في القصد

طالب للحق وجهر به كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية وبالعداوة للدين والملة . واشدهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة توهماً منه ان الاعتراف بفضل الاجنبي مما يزيد طمع الاجانب فينا وان اظهار عيوبنا مما يوقع اليأس في قلوبنا

ولا عذر لهم في حكمهم هذا الآ انهم قد جروا فيهِ على سنتهم في سائر احكامهم . والاّ فهم مخطئون لان السبب في طمع الاجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا وانما هو نفس ذلك الانحطاط الذي عرفهُ الاجانب منا قبل ان نحس بهِ من انفسنا . فهم قد اكتشفوا ما كانت عليهِ بلادنا من منذ خمسة آلاف سنة ووقفوا على اخلاق المصريين وتفصيل احوالهم في معيشتهم ايام الفراعنة وجمعوا من حقائق ذلك الوقت شيئاً كثيراً لم يصل الينا الا منهم وقليل منا من يعرفهُ . فلا عجب ان يكونوا اسبق منا الى معرفة حالتنا الحاضرة نقصها وكمالها ثم لا خوف ان يلحقنا اليأس عند شعورنا بانحطاطنا

لأن اليأس انما يكون عند استحالة الخلاص من التهلكة وليس لهذه الاستحالة محل بالنسبة الينا . خصوصاً ان الامم لا تقف في حياتها عند حد بل هي موضوع للتقلبات والتغيرات . وتتوارد عليها احوال القوة والضعف والشدة والرخاء . فلا تدوم على حال . واذا عرضت عليها الشدة يوماً لا تلبث ان تخرج منها بجدها واجتهادها . وبديهي ان التوجه الى الاصلاح والكمال لا يكون الا بعد الشعور بالنقص . فما لم تستشعر الامة بتأخرها عن الامم الاخرى وتقصيرها عن الوصول الى ما وصل اليه غيرها من غايات الكمال لا تنبعث الى التقدم ولا تتحرك لادراك غاية من هذه الغايات . ولذلك كان تنبيه الامة الى نقصها واشعارها بحقيقة منزلتها من بقية الامم اول فرض يجب القيام به . كما ان شعور الامة بهذا النقص يعد اول خطوة في سبيل ترقيتها

لهذا لا نتردد في ان نصرح بان القول باننا ارقى من الغربيين في الآداب هو من قبيل ما تنشده الامهات

من الغناء لتنويم الاطفال

وغاية ما في الامر ان تقدم الاوروبيين علينا من هذه الجهة لا يقام الدليل عليه بآثار مادية كتقدمهم في العلوم والصنائع وانما يعرفه من خالطهم واختبرهم في ظاهر شؤونهم وباطنها حتى وقف على منزلتهم من الخصائص الادبية

ينقسم الاوروبيون كما تنقسم سائر الامم الى ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . فاما الطبقة الدنيا فاكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم وهم في اخلاقهم الشخصية اشد فساداً من عامتنا في اخلاقها

واما الطبقة العليا فتصيب حظاً عظيماً من التربية العقلية ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة . وتستولي عليها الشهوات . فهم يتفننون في اللذائذ تفنن اهل الجد في الاختراعات والصنائع

وسبب ذلك ان التمدن الذي يعيشون فيه يسهل

لهم ارضاء شهواتهم ويجدون من الوسائل لذلك ما لا يوجد عندنا فابدعوا في اختراع طرق التلذذ واعطوها الاشكال التي تجذب النفوس اليها . فالكهربآء مثلاً التي تضيء المدن وتنقل الاخبار وينتفع منها الزارع والتاجر والصانع والمسافر والمريض تقوم لارباب الخلاعة بخدمات من الوجه الذي يناسبهم . وكذلك ترى لهم جرائد وكتباً وميادين تمثيل تختص بهم كما ان لهم الجنان الناضرة والقصور الشاهقة

هذا الفساد مما تحمله المدنية الغربية وتصبر عليه لانها لا تستطيع محوه . فان هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية فهي مضطرة لان تقبل ما يتبع هذه هذه الحرية من الضرر لانها تعلم ان منافعها اكثر من مضارها

فوجود الفساد في الغرب انما هو لاحق طبيعي من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها في الطور الادبي الحالي الذي توجد فيه تلك البلاد الآن

ولا يشك احد في انه مع مرور الزمن وانتشار المعارف وتحسين طرق التربية في طبقات الامة عاليها ودانيها تتهذب النفوس شيئاً فشيئاً وتقرب من الكمال الذي هو ضالتها

غير انه لا يفوت القارئ ان هذا الفساد الذي ذكرناه في الامم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل الاجتماعية التي هي الركن الاقوى لبناء الامم وما يتبع تلك الفضائل من بذل الانفس والاموال في سبيل تعزيز الوطن او الدفاع عنه فادنى رجل في الغرب كأعلى رجل فيه اذا دعى داعٍ الى هجوم او قيام لدفاع او الى عمل نافع يترك جميع لذائذه وينساها وينهض لاجابة الداعي ويخاطر بنفسه ويبذل ما لهُ الى ان يتم للامة ما تريد فاين حال هاتين الطبقتين من هذه الفضائل الجليلة في الامم الغربية من حالة الامة الشرقية ؟

واما الطبقة الوسطى فلا ريب انها ارقى من التي تقابلها عندنا نحن في الحقيقة لا نعرف من احوال

الغربيين الا بعض ما ظهر منها والكثير منا لا تزيد معرفته بها على ما عرف منها في الشوارع والقهاوي وما قرأه في بعض القصص والحكايات وليس من الحق ولا من العدل ان نظن ان هذه الظواهر هي صورة تامة لحقيقة منزلتهم من الادب

من اراد ان يكون حكمهُ فيهم صحيحاً فعليه ان يلمّ بجميع مظاهر حياة تلك الامم ويقف على جميع الاحساسات والعواطف التي تحرك نفوسهم . وهذا امر يحتاج لمعرفة تامة بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم واخلاقهم فاذا تمت للباحث هذه الشروط امكنه ان يعرف لمَ يهب رجل الماني حياته ويترك زوجته واولاده مساعدةً لامة البوير . ولماذا يحتقر عالم من العلماء طيب العيش ولذائذ الحياة ويرجح الاشتغال بحل مسئلة او كشف غامضة او فهم علة . وكيف ان سياسياً واسع الثروة عالي المقام يفني زمنه في تدبير الوسائل لاعلاء شأن امته وربما حرم نفسه راحة النوم في ذلك السبيل . وما هو المحرك

للسائح الذي يقضي الشهور والسنين بعيداً عن اهله وبلده ليكتشف منابع النيل مثلاً . وما هو الاحساس الذي يرضي القسيس بالمعيشة بين المتوحشين مع ما يتكبده من انواع العذاب وما يحيط به من الاخطار . وما هذا الوجدان الذي يسوق الغني الى ان يبذل آلافاً من الجنيهات لجمعية من الجمعيات الخيرية او لعمل يعود نفعه على امته او على الانسانية .

اذا علم السر في هذه الصفات ومصادر هذه الاعمال الجليلة ثم علم ما بين اعضاء العائلات من الوفاق والائتلاف والمحبة ونظر الى ما في معاملاتهم من الصدق في القول والغيرة على الحق ونموّ احساس الشرف والميل الى مساعدة الضعيف والفقير والرأفة بالحيوان فلا شك انه ينتهي من هذا العلم الى نتيجة صحيحة وهي ان هؤلاء القوم على جانب عظيم من الادب والفضيلة . لان هذه الاعمال والاحوال تدل على ضعف سلطان حب النفس كما تدل على نموّ الاحساس بحاجة كل من افراد الامة

الى الآخر . والترقي الادبي انما هو هذا التضامن بعينه
وليس هذا بغريب فان التقدم في العلوم يؤدي الى
التقدم في الآداب والاخلاق . لا ريب ان الارتقاء
العقلي يصحبه الارتقاء الادبي دائماً فان العلم هو المادة
التي يتغذى منها الادب . لا اقول انه لا يوجد الادب
الا حيث يوجد العلم وانما اقول ان ادب الجاهل لا يمكن
ان يكون ثابتاً في نفسه مثل ثبات الادب في نفس العالم .
العلم يخاطب العقل والحقائق العلمية لا تطلب ان يسلم
بها من غير مناقشة بل تحتاج الى بحث وتعب وشغل
والاعتياد على الاشتغال بالعلم يكسب الاعتياد على ضبط
النفس الذي هو اهم اركان الادب . فاذا همَّ شخص
اشربت نفسه العلم ان يعمل امراً مخالفاً للآداب نزع منه
نازع الى النظر في ذلك الامر وآثاره ومزاياه ومضاره
ثم رجع الى نفسه ليعلم هل يصح لها او لا يصح ويندر
حينئذٍ ان يقدم عليه . اما الجاهل فان كان فاضلاً لم
تكن الفضيلة فيه الا عادة مجرَّدة وهو مستعد للاذعان

الى ما يتأثر به حسناً او قبيحاً ومائل الى قبول ما يرى اغلب الناس عليه بدون بحث فاذا انقطعت العادة مرةً وذاق لذة الرذيلة انفلت قياد نفسه من يده واستحال عليه ان يرجع الى ما كان عليه من قبل

رأينا ان العلم يقوي حكم العقل ويهذب النفس واضيف على ذلك انه يعظم الاحساس الديني . وليس في ذكر هذه العبارة خروج عن الموضوع لان الدين والادب يرجعان في الحقيقة الى شيء واحد

واجمل ما قيل في هذا المعنى ما اتى به الفيلسوف سپنسر في كتابه الذي كتبه في التربية اقتطف منه هنا بعض ما يليق بالمقام قال :

« ليس العلم منافياً للاحساس الديني كما يزعم كثير »
« من الناس . بل ترك العلم هو المنافي للدين . ولنضرب »
« لذلك مثلاً فنفرض ان عالماً من كبار المؤلفين يصنف »
« الكتب ويقرر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون »
« ألسنتهم بمدحه ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه الا »

« علمها ولم يقرأوا شيئاً منها ولم يجهدوا انفسهم يوماً في »
« فهم ما احتوت عليه . فماذا تكون قيمة هذا المدح »
« في نظرنا ؟ وما الذي نعتقده في صدق هؤلاء المادحين »
« ان جاز لنا ان نقيس عظائم الاشياء بصغارها نقول »
« ان الناس يعاملون الكون وخالقه بهذه المعاملة . »
« وادهى ما يأتون من تلك المعاملة انهم لا يكتفون »
« بان يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق »
« تلك الاشياء التي ينادون بانها من ابدع البدائع »
« واغرب الغرائب بل ينحون باللائمة على من يشتغل »
« بفهم حقائقها والوقوف على ما اودع فيها من الاسرار »
« ولو فقهوا لعلموا ان اهمال العلم هو المضعف للاحساس »
« الديني بل الماحق له . اما خدمة العلم فهي عبادة »
« يؤديها القلب لأن خدمة العلم هي اعتراف ضمني بان »
« للمخلوقات قيمة عالية وان الذي اوجدها له شأن »
« اعلى ومقام اسمى . خدمة العلم هي احترام للكون »
« وصانعه يؤديه طالب العلم لا بمجرد الفم واللسان »

« ولكن ببذل وقته وفكره وعمله »

نستنتج مما سبق ان تقدم الغربيين في العلوم ساعد كل المساعدة على ترقيهم في الآداب وان تأخر المعارف عندنا كان سبباً في انحطاط آدابنا

وهذه حوادث عائلاتنا وما يجري فيها بين الاب وابنه والاخ واخيه والزوج وزوجته مما لا يحتاج بيسانه الى تفصيل وهذه حوادث القرى وما يشاهد فيهـا من الحسد والتباغض والخيانة والمنازعات والجرائم البهيمية التي يحار العقل فيها وهذه حوادث الوطن وما يرى في روابط اهله من الانحلال وتفرقهم في الرأي في احقر الشؤون وحرصهم على المال ان لا ينفقوه في سبيل اي منفعة من المنافع العامة وضنهم بشيء من اوقاتهم للفكر في اي مصلحة من مصالح بلادهم كل هذا برهان على انحطاط اخلاقنا . وما يكون عندنا من محاسن الاخلاق كالكرم المعهود في كثير من بلاد الارياف يرجع في الحقيقة الى عيب من العيوب كالتنافس في حب الشهرة

ولهذا ترى الكثير من اعيان البلاد المشهورين باكرام الضيف والمبالغة في الاحتفال به يسيرون في سائر شؤونهم على خلاف مقتضى الكرم فيظلمون الفقير ويطمعون في في اموال الضعفاء من اقاربهم وخصوصاً النساء منهم ويضيقون على عائلتهم في المعيشة ويأتون من ذلك ما تأباه النفس الكريمة

وحال الامة التركية لا يختلف في ذلك عن حالنا . نعم في بعض بلاد الريف هناك رقى في الآداب والاخلاق وامتياز لها على الاخلاق والآداب المصرية . ولكن لا سبب لذلك الا ان التركي يعيش في قريته بغاية السذاجة وعلى ضرب من سعة العيش فلا يجد ما يحمله على ارتكاب ما يخالف الآداب الحسنة . وهو بعيد عن كثير من الرذائل لانه يجهلها ولا يتصور وجودها . فاذا فارق قريته وسكن مدينة من المدن رأيته ولا يجاريه احد في مسابقة اهلها الى مراتع اللذات ومسارح الشهوات. وفاق امثاله في جميع العيوب الاخرى

وبالجملة نقول ان التمدن الاوروبي ليس خيراً محضاً فان الخير المحض ليس موجوداً في عالمنا هذا لانه عالم النقص . وانما هو الخير الذي امكن للانسان ان يصل اليه الآن . فقد اتم به شيئاً مما كان ينقصه وارتقى به درجة من الكمال .

ومهما كانت هذه النتيجة صغيرة في جانب ما ينتظر للنفس الانسانية من الكمال فانه ينبغي لنا ان نقنع بها وعلى المستقبل ان يصل باهله الى ما هو اعلى منها

ومن الخطأ ما يتوهمه الكثير منا من ان الترقي يحصل في بعض شؤون الامة ولا يؤثر في سائرها . والصواب ان الترقي لا يكون ترقياً صحيحاً الا اذا وجد منه روح تظهر في جميع شؤون الامة جزئيها وكليها حتى اذا شاء باحث ان يحلل جملته وجدها مركبة من جزئيات من الترقي تظهر في المسكن والمطعم والملبس والمباني والطرق والجمعيات والافراح والمآتم واساليب التعليم والتربية والتياترات والملاهي كما تظهر في الصنائع والتجارة

والزراعة والعلوم والفنون. وعلى الجملة يجد اثراً للترقي في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية

ذلك لان الحالة العقلية والحالة الادبية متلازمتان تلازماً تاماً بل هما في الحقيقة حالة واحدة وانما وضع لهما اسمان بحسب اختلاف الجهة التي ينظر منها اليها فان كل معلوم يرد على العقل يفيده معرفة جديدة ثم هو بهذه الافادة نفسها يدخل في نظام سلوكنا ولو كان العلم قاصراً على المعرفة فقط وليس له اثر في العمل لفقد معظم اهميته ان لم نقل كلها

واما اختلاف عادات الغربيين عن عاداتنا وخروج نسائهم مكشوفات الوجوه واجتماعهنّ مع الرجال وتمتعهنّ بالحرية واحترام الرجال لهنّ فليس مما يدل على انحطاط الآداب عندهم

نعم يعد الكثير منا هذه العادات عيوباً ولكن اذا سئلت لماذا يعامل الغربيون نساءهم على هذه الطريقة ؟ لماذا يحترم الرجل منهم امرأته ويجلسها عن يمينه ويحب

ان تكون نبيهة متعلمة ؟ لماذا يسمح لها ان تخرج متى شاءت وتسافر وتخالط الرجال والنساء ؟ لماذا كل هذه الحرية وكل هذا الاحترام ؛ فجواب الواحد منا لا يكون الا ان هذه هي عادتهم السيئة ولكن هذا الجواب لا يفيد شيئاً لانه يستدعي سؤالاً آخر وهو لماذا كانت هذه العادة ؟ وهنا لا يتيسر له الجواب

لو كان موضوع بحثنا عادة من عادات امة متوحشة لسهل علينا ان نقول ان هذه العادة طرأت عليها بحكم الحوادث وتلك الامة تعمل تحت سلطانها بدون ان تفتكر فيها وهي تجهل اصلها وارتباطها باحوالها كما تجهل الاثر الذي ينشأ عنها في شؤونها

ولكن مما لا يسلمه العقل ان اهل اوربا وامريكا يسيرون على هذه العادة من غير شعور منهم باسبابها ونتائجها ويصعب على العقل ان يظن ان علماءهم الذين يجهدون انفسهم كل يوم في اكتشاف اسرار الطبيعة وان هؤلاء الذين بحثوا عن الميكروبات ووجدوها وبينوا

انواعها ووصفوها بادق اوصافها وربوها واستولدوها غفلوا عن هذه العادة واهملوها

والحقيقة انهم درسوها درساً تاماً كغيرها من المسائل الاخرى وقارنوا بينها وبين عادتنا الشرقية ولا اعلم ان واحداً منهم قام ينادي قومه يوماً ويحثهم على تغييرها . بل الكل متفقون على ان حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق وان عدم الحجاب هو السر في تقدم الغرب . وانما الخلاف يوجد بينهم في تحديد حقوق المرأة السياسية كما بيناه

هذا الاجماع امر جدير بأن يستوقف نظرنا . وجد بين الغربيين رجال يرون ان الملكية الخاصة هي سرقة وان الاموال يجب ان تكون ملكاً شائعاً بين جميع افراد الامة . وظهر فيهم من يقول بالغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرّة لا تخضع لنظام ولا يحددها قانون . وخرج منهم طائفة تنادي بهدم كل نظام وشرع ولا تعترف لحكومة مهما كان شكلها بحق

الوجود . ومع ذلك لم يخطر على بال واحد منهم ان يطلب حجاب النساء . بل نرى الامر بالعكس فان المتطرفين من ارباب المذاهب يطلبون التوسع في حرية المرأة والزيادة في حقوقها الى ان تصير مساوية للرجل . فهم على شططهم متفقون في ذلك مع ارباب المشارب المعتدلة

فما هو سر هذا الاتفاق وما سببه ؟ ألأن الاوربيين لا يحبون التغيير في عاداتهم ؟ كلا . فان التغيير عندهم هو قانون تقدمهم . ومن ألقى نظرة عامة في تاريخهم من قرن واحد يجد انهم غيروا كل شيء عندهم : غيروا حكومتهم ولغتهم وعلومهم وفنونهم وقوانينهم وملابسهم وعاداتهم وان كل ما وصلت اليه هذه الامور معرض الآن لانتقاد الباحثين منهم ومهدد بالتغيير والتبديل من وقت الى آخر

كذلك لا يصح ان يكون من اسباب هذا الاتفاق ما يقال من ان الاوروبيين لا يقدرون شرف

النفس حق قدره ولا يغارون على نسائهم . هذا القول الذي سمعته من كثير من الناس لا يمكن ان يصدر الا من قليل الخبرة ناقص المعرفة لم يقف على شيء من احوال سكان تلك البلاد فهو لا يدري منها اكثر مما يدريه من احوالنا سائح غربي يدور في الازبكية وما جاورها ويكتب من عوائدنا ما يراه من الطائفين حول تلك الاماكن المشهورة

اذن فما هو السبب ؟

السبب هو ان مسئلة حقوق المرأة وحريتها ليست في الحقيقة مجرد عادة . نرى الغربي يرفع قبعته اذا اراد التحية والشرقي يحرك يده ويضعها على رأسه . فهذه عادة من العادات يمكن ان يكون لها ارتباط بتاريخ الشرق والغرب ولكن اهميتها لا تتعدى الموضوع الصغير الذي وضعت لاجله ولا يمكن ان يترتب عليها نتيجة في الحياة الشخصية او العامة . أما كون المرأة تتعلم أو لا تتعلم وتعيش مسجونة في البيت او متمتعة بحريتها وتخالط الرجال او

لا تخالطهم وما هي حقوقها في الزواج والطلاق وماذا يكون شأنها في العائلة وفي الامة فهذه اولاً مسئلة اجتماعية فهي بذلك مسئلة علمية ولا غرابة بعد ذلك في حصول الاتفاق فيها

لهذا يلزمنا بدل ان نهزأ بالغربيين ونحكم عليهم بمقتضى قاعدة تخيلناها وهي انهم ضلوا عن الحق في ما يختص بشأن النساء عندهم — يلزمنا بدل ذلك ان نقف على افكارهم في هذه المسئلة ونبحث في آرائهم وفي اسباب النهضة العظيمة التي قام بها الرجال والنساء في هذا القرن وندرس جميع نتائجها الحالية . وبعد ذلك يمكن ان نكوّن لانفسنا رأياً صحيحاً مؤسساً على النظريات العقلية الصحيحة ومؤيداً بالتجارب والوقائع

خاتمة

حالة الافكار الآن في مصر بالنسبة للنساء

ابتدأ المصريون في هذه السنين الاخيرة يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية وبدت عليهم علامات التألم منها واحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت اليهم اخبار الغربيين واختلطوا بهم وعاشروا الكثير منهم وعرفوا مبلغ تقدمهم فلما رأوا انهم متمتعون بطيب العيش واتساع السلطة ونفوذ الكلمة وغير ذلك من المزايا التي وجدوا انفسهم محرومين منها والتي لا قيمة للحياة بدونها انبعث فيهم الشوق الى مجاراتهم والرغبة في الحصول على تلك النعم . وقام بيننا المرشدون وتزاحموا على بث الافكار التي اعتقدوا انها تهدي الامة الى طريق النجاح . هذا يدعو الى العمل والنشاط وذاك الى ائتلاف القلوب والاتحاد ونبذ اسباب الشقاق وآخر الى حب الوطن

والتفاني في خدمته وغيره الى التمسك باحكام الدين وهلمَّ جرًّا

ولكن فات هؤلاء المرشدين أمر واحد وهو ان هذه الكلمات وما شاكلها لا يمكن ان يكون لهـا في حياة الامة أثر يذكر الا اذا وصلت الى النساء وادركت النساء معانيها وتعلقت نفوسهنَّ بحبهـا وتوجهت ميولهنَّ اليها حتى يمكنهنَّ بعد ذلك ان يصغنَ اولادهنَّ باحسن الصور التي تمثل كمال الانسان في اذهانهنَّ

ذلك لان كل حال اجتماعية لا يمكن تغييرها الا اذا وجهت التربية نحو التغيير المطلوب ولانه لا يكفي في الاصلاح مهما كان موضوعه مجرد حاجة اليه ولا امر تصدره الحكومة بحمل الناس عليه ولا خطبة تلقى على مسامعهم لترغيبهم فيه ولا كتب تؤلف في بيان منافعه ولا مقالات تنشر لشرح مزاياه . فان هذه الامور كلها لا اثر لها الا في ارشاد الامة وتنبيهها الى سوء حالها ولكنها ليست من الوسائل التي تغير الامم وتحولها من

حال الى حال . لان كل تغيير في الامم انما يكون نتيجة لمجموع فضائل وصفات واخلاق وعادات لا تتولد في النفوس ولا تتمكن منها الا بالتربية اي بواسطة المرأة

فاذا اراد المصريون ان يصلحوا احوالهم فعليهم ان يبتدأوا في الاصلاح من اوله . يجب عليهم ان يعتقدوا بان لا رجاء في ان يكونوا امة حية ذات شأن بين الامم الراقية ومقام في عالم التمدن الانساني قبل ان تكون بيوتهم وعائلاتهم وسطاً صالحاً لاعداد رجال متصفين بتلك الصفات التي يتوقف عليها النجاح . ولا رجاء في ان البيوت والعائلات تصير ذلك الوسط الصالح الا اذا تربت النساء وشاركنَ الرجال في افكارهم وآمالهم وآلامهم ان لم يشاركنهم في جميع اعمالهم

هذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان وحكم الفقهاء بانها خرق في الاسلام وعدها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغربيين بل انتهى

بعضهم الى القول بانها جناية على الوطن والدين . واوهموا في ما كتبوا ان تحرير المرأة الشرقية امنيـة من اماني الامم المسيحية تريد بها هدم الدين الاسلامي ومن يعضدها من المسلمين فليس منهـم الى غير ذلك من الاوهام التي يصغى اليها البسطاء ويتلذذ باعتقادها الجهلاء لعدم ادراكهم منافعهم الحقيقية

ونحن لا نريد ان نرد عليهم الا بكلمة واحدة : وهي ان الاوروبيين اذا كانوا يقصدون الاضرار بنا فما عليهم الا ان يتركونا لانفسنا فانهم لا يجدون وسيلة اوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة

هذا هو الحق الذي لا ريب فيه . ومهما اجتهد قوم في اخفائه وغفل آخرون عنه فلا بد ان ينجلي للكل عاجلاً او آجلاً . شأن الحقيقة في جميع الازمان

وكل ناظر في احوال هيئتنـا الاجتماعية الحاضرة يجد فيها ما يدل على ان النساء عندنا قطعنَ دور الاستعباد ولم يبقَ بينهنّ وبين الحرية الا حجاب رقيق . اذ يرى

اولاً — شعوراً جديداً عند المصريين بالحاجة الى تربية بناتهم بعد ان كانوا لا يعلمونهنَّ شيئاً

ثانياً — تخفيف الحجاب وذهابه شيئاً فشيئاً الى التلاشي

ثالثاً — تأفف الشبان من التزوج على الطريقة الحالية وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة

رابعاً — اهتمام الحكومة وبعض ابناء البلاد وفي مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية باصلاح المحاكم الشرعية . وكل من اطلع على التقرير الجليل الذي وضعه فضيلته بشأن تلك المحاكم يجد فيه اموراً كثيره تأتي باصلاح كبير في العائلات المصرية واخص بالذكر منها ما اتى به عند الكلام على تعدد الزوجات حيث قال

« هذا واني ارفع صوتي بالشكوى من كثرة ما
« يجمع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة فان »
« الكثير منهم عنده اربع من الزوجات او ثلاث او »
« اثنان وهو لا يستطيع الانفاق عليهنَّ ولا يزال »

« معهنّ في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية »
« ثم انه لا يطلقهنّ ولا واحدة منهنّ ولا يزال الفساد »
« يتغلغل فيهنّ وفي اولادهنّ ولا يمكن له ولا لهنّ »
« ان يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والامة غير »
« خاف على احد »

وقد حدث في هذا العام ان كثيراً من النساء اللواتي حكم على ازواجهنّ بالاشغال الشاقة مؤبداً او بالسجن المؤبد أو بالحبس مدة طويلة تشكينَ الى نظارة الحقانية من حالتهنّ التعيسة حيث لا سبيل لهنّ من الانفصال من ازواجهنّ ولا يوجد لهنّ عائل يقوم بنفقاتهنّ ومعاش اولادهنّ فاضطرت نظارة الحقانية الى استفتاء حضرة مفتي الديار المصرية عن الوجوه الشرعية التي يمكن اتخاذها لازالة اسباب الشكوى فبحث حضرته في هذه المسئلة وفي مسائل اخرى تشابهها واستخرج من فقه المالكية احدى عشرة مادة وقدمها الى نظارة الحقانية واليك بيانها ننشرها افادة للقراء :

(المادة الاولى) اذا امتنع الزوج عن الانفاق على زوجته فان كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة في ماله فان لم يكن له مال ظاهر واصر على عدم الانفاق طلق عليه القاضي في الحال وان ادعى العجز فان لم يثبته طلق عليه حالاً وان اثبت الاعسار امهله مدة لا تزيد على شهر فان لم ينفق طلق عليه بعد ذلك

(المادة الثانية) ان كان الزوج مريضاً او مسجوناً وامتنع عن الانفاق على زوجته امهله القاضي مدة يرجى فيها الشفاء او الخلاص من السجن فان طالت مدة المرض او السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضي

(المادة الثالثة) اذا كان الزوج غائباً غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضي له اجلاً فان لم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها او لم يحضر للانفاق عليها طلق عليه القاضي بعد مضي الاجل فان كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت انه لا مال له تنفق منه

الزوجة طلق عليه القاضي

(المادة الرابعة) اذا كان للزوج الغائب مال أو دين في ذمة احد أو وديعة في يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين ولها ان تقيم البينة على من ينكر الدين او الوديعة ويقضى بطلبها بلا كفيل وذلك بعد ان تحلف انها مستحقة للنفقة على الغائب وانه لم يترك لها مالاً ولم يقم عنه وكيلاً في الانفاق عليها

(المادة الخامسة) تطليق القاضي لعدم الانفاق يقع رجعياً وللزوج ان يراجع زوجته اذا اثبت ايساره واستعد للانفاق في اثناء العدة فان لم يثبت ايساره او لم يستعد للانفاق لم تصح الرجعة

(المادة السادسة) من فقد في بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته كان لها ان ترفع الامر الى نظارة الحقانية مع بيان الجهة التي تعرف أو تظن انه سار اليها او يمكن ان يوجد فيها وعلى ناظر الحقانية عند ذلك ان يبحث

عنه في مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس وبعد العجز عن خبره يضرب لها اجل اربع سنين فاذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة اربعة اشهر وعشراً بدون حاجة الى قضاء ويحل لها بعد ذلك ان تتزوج بغيره

(المادة السابعة) اذا جاء المفقود أو تبين انه حيّ وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثاني بها غير عالم بحياته كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقاً أو بعد التمتع في حال ما لو كان الزوج الثاني عالماً بحياة المفقود فان ظهر ان المفقود مات في العدة او بعدها قبل العقد على الزوج الثاني او بعده ورثته ما لم يكن تمتع بها الثاني غير عالم بحياة الاول فان مات بعد تمتعه وهو غير عالم بحياة الزوج الاول لم ترث

(المادة الثامنة) من فقد في معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض وثبت انه حضر القتال جاز لزوجته ان ترفع الامر الى ناظر الحقانية وبعد البحث عنه وعدم

العثور عليه تعتد الزوجة ولها ان تتزوج بعد العدة ويورث
ماله بمجرد العجز عن خبره فان لم يثبت الا انه سار مع
الجيش فقط كان حكمه ما في المادتين السابقتين

(المادة التاسعة) لزوجة المفقود في حرب بين
المسلمين وغيرهم ان ترفع الامر الى ناظر الحقانية وبعد
البحث عنه يضرب لها اجل سنة فاذا انقضت اعتدت
وحل لها الزواج بعد العدة ويورث ماله بعد انقضاء السنة

وكل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود اذا
كان في ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخشَ على نفسها
الفتنة والا رفعت الامر الى القاضي ليطلق عليه متى ثبت
له صحة دعواها

(المادة العاشرة) اذا اشتد النزاع بين الزوجين
ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص
عليها من كتاب الله تعالى رفع الامر الى قاضي المركز .
وعليه عند ذلك ان يعين حكمين عدلين احدهما من
اقارب الزوج والثاني من اقارب الزوجة والافضل ان

يكونا جارين فان تعذر العدول من الاقارب فانه يعينهما من الاجانب وأن يبعث بهما الى الزوجين فان اصلحاهما فبها والا حكما بالطلاق ورفعا الامر اليه وعليه ان يقضي بما حكما به ويقع التطليق في هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها

(المادة الاحد عشرة) للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج اذا كان يصلها منه ضرر والضرر هو ما لا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعي والضرب والسب بدون سبب شرعي وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

وقد وافق على هذا المشروع حضرة شيخ الجامع الازهر حيث ارسل الى حضرة المفتي الجواب الآتي :

« حضرة الاستاذ صاحب الفضيلة مفتي افندي »
« الديار المصرية أيده الله »

« باطلاعنا على خطاب فضيلتكم المؤرخ ٤ الجاري »
« نمرة ١٩ وعلى المشروع المرفق به المشتمل على احد »

« عشر مادة مستخلصة من مذهب الامام مالك رضي »
« الله عنه المطلوب ابدأ رأينا فيه قد رأينا ما رأيتموه »
« ووقعنا عليه بالموافقة وشكرنا همتكم العلية على اعتناء »
« فضيلتكم بهذا الخطب الجليل وطيه المشروع المذكور »
« افندم » الفقير سليم البشري

٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ المالكي خادم العلم
والفقراء بالازهر

هاتان المسئلتان مسئلة تعدد الزوجات ومسئلة تخويل المرأة حق الطلاق هما من اهم المسائل التي استلفتنا اليها الانظار في كتاب تحرير المرأة ويسرنا أن عالماً عظيماً وفقيهاً حكيماً مثل حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رأى انهما جديرتان بهمته فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما

جميع هذه العلامات وغيرها مما يلاحظ في البيوت كل يوم تنبأنا بأن حالة المرأة المصرية آخذة في التحسن والترقي .

غير ان هذه الحركة لم تصدر عن نظر وروية بل حدثت

فينا بالتأثر عن مخالطة الغربيين وبمقتضى حكم الناموس المعروف عند علماء التاريخ الطبيعي القاضي بان كل حيوان يتطبع بطبيعة الوسط الذي يعيش فيه . والدليل على ان لا دخل لارادتنا في هذه الحركة انا عند ما قلنا بوجوب المحافظة عليها وامدادها حتى نبلغ منها الغاية لاقينا معارضة شديدة حتى ممن ظهرت مبادئ هذا التحول في نفوسهم وبدت بوادره في بيوتهم

ولا عجب في ذلك فان شأننا ان نتبع اهواءنا في جميع اعمالنا

وقد اظلنا الوقت الذي يجب فيه ان نعرف ماذا نريد ؟

ان كان مقصدنا من الحياة ان يعيش كل منا بضع سنين يقضيها في اي حال كانت واستوى لدينا العز والذل والغنى والفقر والحرية والرق والعلم والجهل والفضيلة والرذيلة فارى ان ما منح الى الآن للمرأة المصرية من الحرية والتربية لا داعي له . ولا اجد مانعاً من ان يتمتع الرجل بعدة نساء ويتزوج كل يوم امرأة ثم يطلقها في

اليوم التالي ويسجن زوجاته وبناته واخواته وامه وجدته اذا شاء

يوجد في افريقيا وآسيا امم عديدة يعيش النساء فيها مدفونات في البيوت بحيث لا يرين انساناً ولا يراهن احد . ويوجد بين هذه الامم من وصلت عندها حياة المرأة من الحقارة الى حد انه متى توفي زوجها وجب عليها ان تعدم نفسها لكي لا تتمتع بالحياة بعده فما علينا الا ان نوجه انظارنا الى هؤلاء الامم ونسألهم عن سر تقدم نسائهم في الجهل والاحتجاب لعلنا نجد عندهم ما يقوى حجتنا في تشديد الحجاب والحجر على المرأة .

اما اذا كان المقصد هو ما نقرأه ونسمعه كل يوم من ان المصريين يريدون ان يكونوا امة حية راقية متمدنة فلنا ان نقول لهم :

يوجد وسيلة تخرجكم من الحالة السيئة التي تشتكون منها وتصعد بكم الى اعلى مراتب التمدن كما تشتهون وفوق ما تشتهون ألا وهي تحرير نسائكم من قيود

الجهل والحجاب . هذه الوسيلة نحن لم نبتكرها وليس لنا فضل في اختراعها فقد استعملتها امم من قبلنا وجربتها وانتفعت منها . انظروا الى الامم الغربية تجدوا بين نسائها اختلافات عظيمة . تجدوا ان تربية المرأة الامريكية واخلاقها وعاداتها وآدابها غير تربية واخلاق وآداب المرأة الفرنساوية وان هذه تختلف من كل هذه الوجوه عن المرأة الروسية وان المرأة التليانية لا تشبه في شيء من ذلك المرأة السويدية ولا الالمانية . ولكن جميع هؤلاء النساء على اختلاف الاقليم والجنس واللغة والدين بينهنَّ اتحدنَ واجتمعنَ في امر واحد وهو انهنَّ يملكنَ حريتهنَّ ويتمتعنَ باستقلالهنَّ

هذه الحرية هي التي اخرجت المرأة الغربية من انحطاطها القديم . فلما اضيف عليها التعليم وجهت ارادتها الى ان تشترك مع الرجال في تقدم الجمعية التي تنتسب اليها . وتم هذا الاشتراك باتيانها اعمالاً مفيدة تختلف بلا ريب عن اعمال الرجال ولكن لا تنقص عنها في

الاهمية . فالتاجر الذي يقضي نهاره في حانوت ليبيع بضاعته والكاتب الذي يمضي بضع ساعات في ديوان من دواوين الحكومة يشتغل فيها بتحرير افادة الى مصلحة اخرى والمهندس الذي يبني قنطرة لتسهيل المواصلات بين البلاد والطبيب الذي يقطع عضواً ليحيي باقي اعضاء الجسم والقاضي الذي يفصل في المنازعات التي تقوم بين الناس جميع هؤلاء وغيرهم لا يوجد منهم واحد يحق له ان يدعي ان عمله يفيد الهيئة الاجتماعية اكثر من عمل امرأة تهدي الى الجمعية رجلاً وتربيه على ان يكون نافعاً لنفسه ولاهله ولامته

نحن لا نقول لكم كما يقول غيرنا اتحدوا وكونوا عوناً بعضكم لبعض او طهّروا انفسكم من العيوب التي تعهدونها في اخلاقكم او اخدموا اهلكم ووطنكم أو ما يماثل ذلك من الكلام الذي يذهب في الهواء . نحن نعلم ان تغيير النفوس لا ينفع فيه نصيحة مرشد ولا امر سلطان ولا سحر ساحر ولا كرامة ولي . وانما يتم كما

ذكرناه باعداد نفوس الناشئين الى الحال المطلوب احداثها

ذلك هو السير الطبيعي البعيد الامد المحفوف بالمصاعب . ولكن اسهل المصاعب هي التي تنتهي بالفوز والنجاح واقرب الطرق هي التي توصل الى المقصد

« انتهى »

فهرست

صفحة

٥ مقدمة

١ المرأة في حكم التاريخ

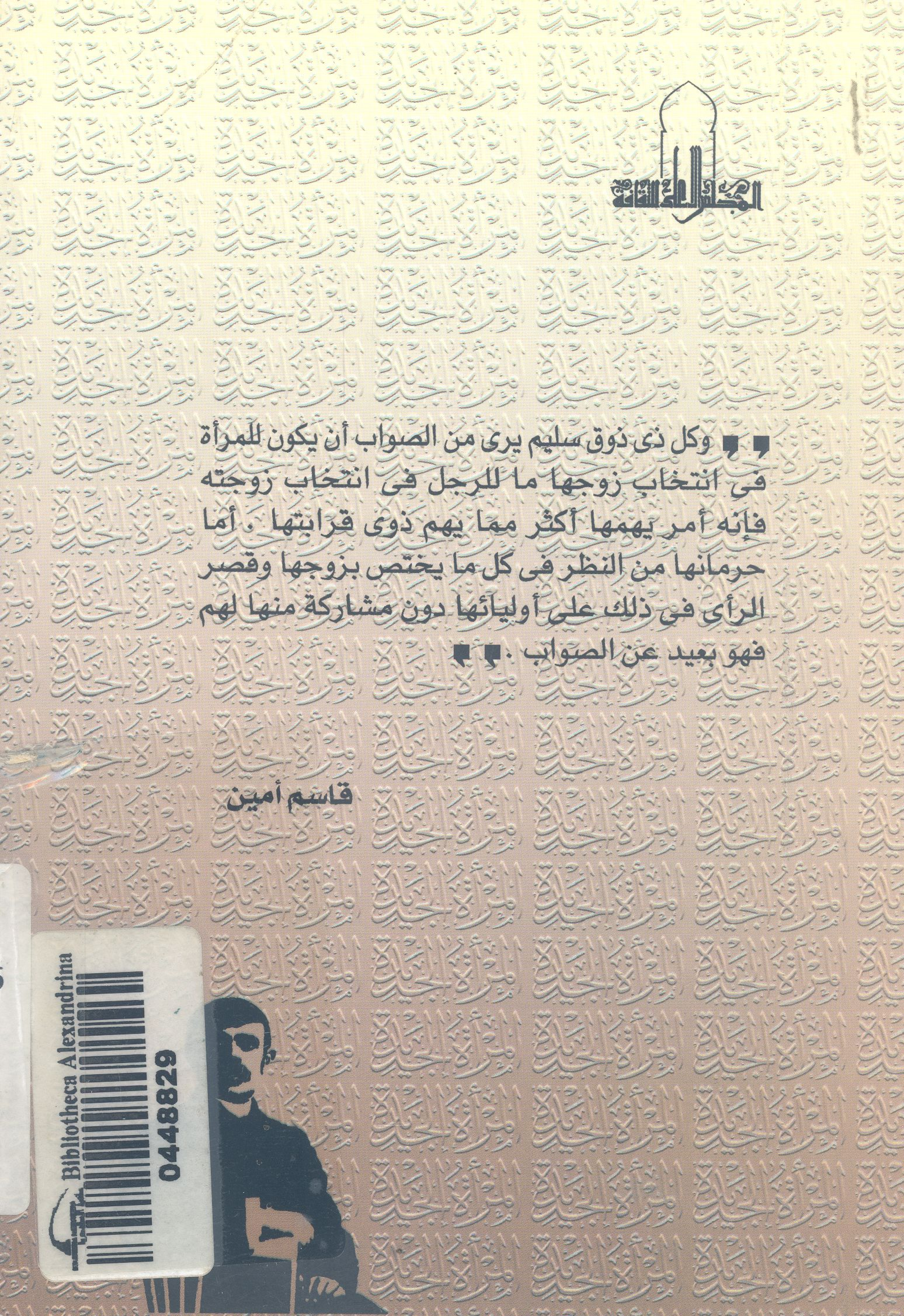
٢٧ حرية المرأة

٧٤ الواجب على المرأة لنفسها

١١٠ الواجب على المرأة لعائلتها

١٥٦ التربية والحجاب

٢١٣ خاتمة — حالة الافكار الآن بالنسبة للنساء


المجلس الأعلى للثقافة
" وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة
فى انتخاب زوجها ما للرجل فى انتخاب زوجته
فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها . أما
حرمانها من النظر فى كل ما يختص بزوجها وقصر
الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم
فهو بعيد عن الصواب . "
قاسم أمين
مرأة الجديدة
Bibliotheca Alexandrina
0448829